

محمد فريد أبو حديد

الأمم جحا

طبعة خاصة بدولة الإمارات العربية المتحدة





رئيس مجلس الإدارة
سعيد عبده مصطفى

كتب ثقافية

تصميم الغلاف:
أيمن القاضي

أبو حديد، محمد فريد، 1893 - 1967.
آلام جحا/ محمد فريد أبو حديد. - القاهرة:
دار المعارف، 2016.
204 ص، 19.5 سم
طبعة خاصة بدولة الإمارات العربية المتحدة
تدمك 8 8357 02 978
1 - الاهاجي والفكاهات العربية.
(أ) العنوان.
تصنيف ديوي: 817
رقم الإيداع: 2016/10313
رقم أمر التشغيل: 1/2016/32
رقم الكونجرس: 8 - 840252 - 01 - 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكتروني
بدار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل -
القاهرة - جمهورية مصر العربية

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg



تتميم الطليعة ربيع من
مؤسسة الشيخ زكاري بن سلطان آل زهراني
الأعمال الخيرية والإنسانية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١

مضى على أربعون عامًا وأنا على هذه الأرض. وهأنذا أنظر إلى ورائي، إلى هذه السنوات الطويلة فأرى أقصاها كأنه الأمس القريب لم تمض عليه إلا ليلة. فما معنى الزمان وما معنى السنوات التي نعدّها؟ ما زلت أنا حجا الذي عرفته في سن العشرين والعشر، لم يتغير مني شيء سوى أن صلب عودي وجمدت مفاصلي وزدت في الطول والعرض شيئًا، وما زلت أغضب وأرضى وأحب وأكره وأندفع مع حماقة البشرية كما كنت أفعل صغيرًا. إن الحكمة لم توهب للبشر وإن كانوا يدعونها.

لقد كنت أحسب أن الأربعين إذا بلغت توفى بي على سن الكمال، فإنها السن التي كان الأنبياء يبعثون فيها. ولكني لم أجد في نفسي تبدلًا وقد بلغت. فما زلت كما كنت حائرًا خائبًا أهيّم في خيالي ولا أعرف من أمور الحياة أمرًا.

لقد تعودت أن أصارح نفسي ولا أخادعها وأنظر إلى عيوبي فلا أسترها، ولست أدري كلما تأملت أحوالي أبكى أم أضحك منها.

لست أحسن فى الحياة إلا أن أهيم فيها على وجهى قائمًا بما تقع عليه عيناي من مجالى هذا الكون العجيب الذى يهزنى بجماله وجلاله. فإذا غمرتنى الهزة أنطقتنى قائلاً «سبحان ربى» وأبعد فى التأمل حتى أغيب عن وعيى، والناس ينظرون إلى وهم يسعون ويكدون ويتزاحمون على ما أسميه حطام الدنيا فأراهم يمشون على ويبسمون سخرًا، فأوشك أن أسخر منهم وأضحك من جهالتهم ولكنى أعود سريعًا إلى نفسى فأردها عن السخرية، فإنى لا أدرى أنا خير منهم أم هم خير منى.

وأضيق أحيانًا بما ألقاه فى مصبى وممساى، وأنكر ظلم الأحياء وأمتلى عليهم بالحنق أحيانًا، فإذا ما أذهلتنى ضربات الحياة وعثراتها وقفت بين الناس أضحك حتى يتحلقوا حولى ويضحكوا لضحكى. فإذا نطقت بما فى قرارة قلبى حسبوا أننى أهرف وأخلط فيزدادون منى ضحكًا. أهذا قضاء الله الذى قدره لى؟

لم يهب لى الله ما وهبه لهؤلاء الذين يضطربون فى الحياة فيصارعونها. لم يهب لى مالا أسند إليه ظهري، ولا حيلة أكيد بها وأعتمد عليها ولا جمالا فى خلقتى ولا بسطة فى قوتى. ولكنه وهب لى قلبًا يحس عظمتة وجلال خلقه وكفانى هذا وحسبى!

ولست أملك من دنياى إلا هذه الدار التى خلفها لى أبى من تراث أجدادى. وقد كانت بها حديقة أدركت خضرتها فى صباى، ولكنها اليوم صحراء جرداء بلقع. فليس بها من آثار الخضرة إلا جذوع

كالحة ونخلات شعناء. وقد تهدمت ساقيتها وكسرت قواديسها وانقطع ثمرها. ومع ذلك فإننى أحبها ولا أرضى أن أبيع منها قيراطاً وحسبى من الحديقة سعتها. بل إننى لست أرضى أن ينقطع دوران الساقية، فلا يزال الثور يدور بها ويعجبني أن أسمع نعيها إذا صفا الليل وهذا الكون وسطع البدر، فإن صوتها يقع فى أذنى أشهى من الألحان، وحسبى من ساقيتى نعيها وقد تهدم سور البيت فصار لا يحجب أهل الفضول ولا يمنع الدخيل ولكن ما ضرني من ذلك والأسوار لا تقام إلا إذا كان صاحبها يخشى على ذهب عنده أو جواهر؟ وأنا بحمد الله ليس عندى منها ما ينغص على عيشى. خرجت يوم بلغت الأربعين إلى ظاهر ماهوش لعلنى أستوحى فى ذلك اليوم ما يحيل جدبى إلى خصب، أو يدخل نوراً إلى ظلام القلب. وكان الربيع يخلع على الريف رداءه، وحقول البرسيم الخضراء تتموج تحت أذيال النسيم رطبة يانعة، والفول يملأ الهواء عطراً من نواره الجميل، ومروج القمح كأنها لوحة فنان أبدع فى مزج ألوانه فهي زبرجد فى ذهب، وحوافى النهر ترقص بما عليها من أعشاب وأزهار. فلو شئت أن أتغنى بما وقعت عينى عليه من الجمال لما أبقيت موضعاً لغيره من الحديث. وحسبى أن أقول إنه السحر الساحر وسبحان مبدع الكائنات. فسرت صامتاً وقلبى يثرثر وروحي يخلق حتى بدا لى العالم كله كأنه ذرة على ساحل المحيط، وهانت عندى الحياة وما فيها من هموم صغيرة. حقاً ما أصغر هموم الحياة!

كنت أميل إلى العود الضئيل من العشب فأرفعه إلى عيني وأحاول أن أرى ما فيه من جلال الإبداع، فيرتد عنه بصرى حسيراً. وأرى الذبابة على العود أو البعوضة فوق الورقة أو النحلة ترف على الزهر فأتأمل الإبداع بعد الإبداع وأغمض عيني خوف أن يعشيها نور الجلال. فأصيح بغير وعى «يا الله!».

ورأيت شجرة جميل على جانب الطريق، وكنت كثيراً ما أستريح فوقها إذا تعبت من طول جولتي. وتلك عادة تعودتها منذ صغرى، فقد طالما كنت أقضي الليل راقداً بين الغصون كأننى بعض الطيور فى أوكارها.

وجلست أقلب نظرى فى الأفق البعيد وفى ظل الشجرة القريب، فما وقع إلا على جليل من المعانى تومض فى ومضات كنار الجبل إذ آنسها موسى. فلا أكاد أسمو بنظرى إلى قبس منها حتى يرتد طرفى كليلاً.

وفيما كنت فى مجلسى أهيم فى مدارج السماء، إذ جذبتنى حركة على الأرض. فالتفت إلى الطريق فإذا بى أرى موكباً يحيط بهودج، وهو متجه نحو ماهوش مقبلاً من ناحية قصر نزهة السلطان. فكدت أصرف النظر عنه وأعود إلى هيامى فى فضائى ولكن ما أعجب الإنسان إذ ينقلب من السماء إلى الأرض يجذبه إليها عنصر الصلصال! كان الموكب باهراً لا تقع فيه العين إلا على وهج من الحرير والجوهر أو بريق من الحديد والذهب. فخشعت فى مكانى

وجلست أرقبه حتى مر وصار الهودج حياىلى. فإذا بى أرى الستر مزاحاً، وألمح من ورائه فتاة سبجان الخالق القهار! كان وجهها سافراً عن فلقة من بدر، أبيض فى حمرة كأنه وردة تتفتح فى الربيع. وكانت تنظر إلى المروج الخضراء باسمه، وترمى بلمحات من عينين لا أستطيع أن أصور ما فيهما من حلاوة. فحقق قلبى خفقة أحسست منها كأنه غاص فى صدرى، وصحت صيحة مكتومة «أهذه عليّة؟» وأغمضت خشية الفتنة، ولكن عيني لم تطاوعانى - غفر الله لى - فعدت أنظر إلى تلك الخلقة البديعة وعاد قلبى إلى خفقانه وعادت إلى ذكرى عزيزة فهزرت كيانى. إنها عليّة الحبيبة حقاً. والتفتت الفتاة فاضطربت غدائر شعرها الأسود حول عنق فى بياض الزنبق ورأيت جبينها الواضح وأنفها الجميل، وكانت تزىح جانب الستر بأنامل منعمة فوقها معصم أنيق يتوهج بالجواهر. فدار رأسى حتى كدت أسقط من مجلسى، وتعلق بصرى بأعقاب الموكب حتى غاب عن عيني. فنزلت ولا أدرى إلى أين أسير، شاخصاً إلى الهودج كأننى أنجذب نحوه قسراً. وسرح خيالى إلى أيام شبابى إذ كنت أهيىم بمن استأثرت بفؤادى، عليّة التى بهرتنى وفنتتنى. أواه إننى لا أذكرها إلا خفق قلبى وأضاء الكون حولى. كانت عليّة فى شبابى علالة النفس إذا صحت ومؤنسة الأحلام إذا أغفيت. كنت أقف الساعات أنتظر حتى تمر على، فإذا مرت سرت وراءها مباعداً حتى تغيب عن عيني ثم أعود فأقف حيث كنت فأبقى ساعات

أخرى حتى ترجع لكى أتزود منها بنظرة أخرى. لشد ما كنت
سخيًا شقيًا إذ ضعفت وجبنت وتركت منافسى السمع يفوز بها. وا
أسفاه علىّ وعليها! فإن ذلك المنافس أشقانى وأشقاها. ما كان أشد
حمقى وسوء حظى إذ ترددت ولم أجاهد لأنتزعها منه انتزاعًا!
نعم كنت فقيرًا وكان غنيًا، وكنت قبيحًا وكان جميلاً، وكنت هين
الجاه وكان وجيهاً. ولكنى كنت أملك حبنى وقلبنى وكان ذلك خيرًا
لها من ماله وجماله وجاهه. ولم يمهلها الأجل فاهتصرها فى رونق
الشباب وسرت وراء نعشها. فكان قلبى يدمى حتى شيعتها إلى
قبرها. عفوك يا عليّة فقد كنت مذنبًا تعسًا، أو لقد كان هذا قضائى.
ولقد خيل إلى بعد أن فقدتها أن قلبى قد أغلق وجمد واستقر على
بلواه، وما كنت أحسب أنه سوف يخفق مرة أخرى. ولكنه فى ذلك
اليوم خفق وتوهج فيه القبس الخابى.

لست أدرى: أعادت عليّة إلى الحياة وكانت هناك فى الهودج
تمر أمامى؟ لقد رأيت فى الهودج عينيها وجبينها وغدائر شعرها
ولفحة جيدها. أكنت أهذى إذ رأيته ولم يكن ذلك إلا خيالاً؟ أم لقد
مر الهودج حقًا أمامى وبدت صورتها حيالاً؟

وسرت بين الحقول أهيم ولا أحس مواقع قدمى، ولا أرى شيئاً
مما يحيط بى حتى تنبعت إلى صوت ينادينى. فتلفت كأنى أستيقظ
من حلم فإذا بى أرى صديقى أبا النور أمامى.

لك الله يا صديقى! فليس لى فى ماهوش كلها قلب أطمئن إلى
رحمته غير قلبك. فلما نظرت إليه بادرنى قائلاً:

- أين كنت منذ الصباح؟

فقلت فى ارتباك،

- على الأرض حيناً وفوق الشجرة حيناً.

فقال فى عطف: وإلى أين؟

فتلفت حولى، لأعرف أين - كنت، ولكن اضطراب حواسى كان

يذهلنى فقلت:

- إن شئت الحق فإنى لا أدرى.

فأخذنى من ذراعى وخرج بى يسير نحو الطريق، وعند ذلك

تبينت أننى كنت أسير فى حقل حديث عهد بالرى وأنا أغوص فيه
وأخبط على غير هدى.

فلما صرنا على الطريق قال صاحبنى:

- أتحب العودة إلى ماهوش؟

وما كنت لأنصرف عن الصورة التى ملأت فؤادى فسألت قائلاً:

- أرايت هذا الموكب الذى مر بى؟

فلم يزد على أن قال:

- نعم رأيت.

ثم سكت كأن الأمر لا يستحق إلا تلك الكلمة القصيرة. فأعدت

قائلاً:

- أوقعت عينك عليها؟

فنظر أبو النور نحوى بعينيه الفاترتين وقال متعجباً:

- من تعنى؟

فانطلق لسانى قائلاً: عليه!

فأحسست يده تشدد على ذراعى وقال فى رحمة:

- هو موكب ابنة السلطان يا صديقى.

ثم حرك شفتيه يقرأ هامساً.

فلم أشعر إلا وقد اندفعت أصف محاسنها، وكنت أتعجب من الحرارة التى تتدفق فى بيانى. نعم كانت نفسى تعجب من نفسى. وزادت قبضة صاحبى على ذراعى شدة، وخيل إلى أنه يحاول أن يسندنى. فتمالكت نفسى وأمسكت لسانى، وسرت إلى جانبه صامتاً وهو يقودنى، وعدت إلى صورة الهودج أتمثلها وأتأمل محاسنها، ثم صحت فجأة:

- أهى ابنة السلطان حقاً؟

فحرك أبو النور شفتيه، ولكنى سمعته يهمس مستغفراً.

فأعدت سؤالى عليه، ولم أرد به إلا أن أعرف إذا كان صاحبى قد رأى الموكب حقاً، فقد داخلنى الشك أن يكون ما رأيته من أشباح وهمى. ولكنه قال:

- هكذا قال حراسها.

فهدأت نفسى قليلاً وعدت إلى صورة الفتاة أناجيها. وما ضرنى أن تكون تلك عليه التى أحببتها فى شبابى، أو أن تكون ابنة السلطان أو غيره من الخلق فلم أكن أطمع فى غير صورتها وتلك قد احتواها قلبى وحسبى.

هكذا يسقط الإنسان من السماء إلى القرار السحيق فجأة، فقد بلغت دارى ورأيت امرأتى ريمة أمامى، وما رأيته يوماً إلا وقع فى نفسى أن صاعقة تريد أن تنقض على، أو أن الأرض تريد أن تنهار من تحتى، أو أن الدنيا شعلة من النار، أو أن نورها قد أنطفأ ولفها الظلام. أين هذه الزوجة من عليّة التى فجعت فيها؟ المسكينة عليّة! أهى قد ماتت حقاً؟ أم أنها هى التى رأيته فى الهودج والموكب العظيم يحرسها؟ وماذا يعنينى إذا كانت هى هذه أو تلك؟ فإنما تصاحبنى صورة فى قلبى لا تتغير ولا تتبدل، وسواء على أكانت صورة ذلك الجسد أم ذاك. أين ريمة امرأتى من تلك الصورة، صورة عليّة، أو صورة ابنة السلطان، أو هى صورة عليّة ابنة السلطان فى آن؟ إن ريمة امرأتى لا تدع فرصة إلا انتهزتها لتأكيد عيشى وتسويد أيامى، فلا أراها إلا مخالفة معاندة، لا يعرف السلام سبيلاً إلى قلبها. ما قلت لها يوماً هذا شرق إلا كان جوابها «بل هو غرب». وإذا قلت «هذا أبيض» قالت «بل هذا أسود. أليس لك عينان؟» وقد أقول لها يوماً مخادعاً «هذا يوم سعيد إذ أصطبغ على وجهك» وأحسب أنى بذلك أداهنها وأسل خبثها، فتأبى إلا أن تجيب «أما إنه ليوم أغبر منحوس». وهى

تخالفنى فى كل شىء وفى كل معنى. فأنا رجل نحيف الجسم وهى مثل فرس البحر كأنها تأكل مع عميان، وأنا خفيض الصوت وهى إذا نطقت كأن فى حلقها بوقًا. وأنا أحب الصمت وهى تتكلم بلسان ذى ثلاث شعب. وأنا أحب النور وهى تهوى الظلام، فإذا فتحت نافذة أغلقتها وإذا أوقدت مصباحًا أطفأته. وإذا سكنت ثرثرت وإذا تكلمت التوت عنى فما تنطق.

وهى فوق هذا كله تتعمد أن تكون الحياة على غير ما أرى، وتتعمد أن تحب كل ما أكره وتكره كل ما أحب.

كنت عائداً إلى بيتى بعد صلاة العصر فمررت بحانوت فاكهائى، ورأيت عنده برتقالا كأن لونه من الذهب، وكأن رائحته عطر المسك، وكانت الواحدة منه مثل الرمانة الكبيرة. فحدثت نفسى أن أشتري منه لأولادى، ومددت يدى إلى جيبى فلم أجد درهماً. فسرت فى طريقي أحدث نفسى بذلك البرتقال ولو كان معى دراهم لاشتريت منه بعشرة. ولما بلغت الدار كان همى عظيماً إذ دخلت إلى عيالى بغير تلك الفاكهة الحلوة، وأردت أن أخفف من ثقل الهم على نفسى فقلت لامراتى:

– لقد رأيت اليوم برتقالا لم أر مثله فى حياتى.

فأجابت فى فتور: وأين نحن من البرتقال؟

ثم تنهدت.

فقلت: وكنت أحب لو اشتريت منه بعشرة دراهم، لولا أننى لم

أجدها فى جيبى.

فصاحت فى غضب: عشرة دراهم؟ أكنت تريد أن تبدد دراهم
عشرة فى شراء برتقال؟

فقلت: أما إنه لبرتقال عجيب.

وشرعت أصف لها لونه وريحه وحجمه. ولكنها صاحت بى:

– لقد عرفت أنك أحمق الرجال.

فغضبت وقلت لها:

– وما ضرك لو تفكه الأطفال مرة؟

فأخذت تصيح بى وتسبىنى، حتى جاء أبو النور من بيته
على صياحها، وأقبلت عليه أقص عليه القصة، وكانت امرأتى
تقاطعنى وتسفه رأىى. فأراد الرجل الطيب أن يطفئ نيرانها فقال
لى يلىمنى:

– الحق مع امرأتك. فإن عشرة دراهم لا تبذل فى شراء البرتقال
لأمثالنا.

ثم أراد إرضائى فقال:

– أما كان يكفىك أن تشتري بخمسة دراهم؟

فأردت أن أهدئ المرأة فقلت:

– لا بأس يا صديقى، كانت الخمسة تكفى، ولن أرد لك قولاً.

فخجلت ريمة من عنفها، وانتهزت الفرصة لترجع عن عنادها،

وقالت تخاطب صديقى:

– قل له يا أبا النور أما كانت الخمسة تكفى؟

فقال لها أبو النور :

- صدقت. وقد اتفقنا جميعاً.

وهكذا سكنت العاصفة، ولكنها سكنت لكى تهب مرة أخرى أشد عنفاً. ففي ذلك اليوم جاء وقت العشاء ورأيتها تقلى بيضاً، وأنا أحب البيض المقلّى إذا كان الزبد جديداً. فقلت فى نفسى لعلها تريد أن ترضينى وتستسمحنى بعدما كان منها. وكدت ألوم نفسى على غلظتى فى مخالفتها. فلما أعدت السفرة ودعت الأولاد للعشاء نظرت إلى فى خبث ثم مدت يدها إلى علبة فيها بهار وفلفل، وأهوت على طبق البيض حتى طمسته فصار لونه أغبر كريهاً. وهى تعلم كراحتى للأفويه فلست أطيع حراقتها ولا أقوى على حرارتها، بل إنى لا أحب ريحها وأكره النظر إليها وأعتقد أن الله لم يخلقها لخير أبداً، وأنه لا يبارك فى زراعتها ولا فى تجارتها وأن الأرض التى تنبتها لن تصيب إلا الذل وأن القوافل التى تحملها لا يبارك الله فى دابتها.

فلما أردت أن أردّها عن خبثها قلت لها :

- إن هذا البهار يحرق حلوق الأطفال.

وبدأت أزيحه بلقمة عن وجه البيض فصاحت بى قائلة :

- قلت لك دعه فلا طعم لهذا البيض إلا بفضله.

فصحت قائلاً :

- أما تشفقين على هؤلاء الصغار؟

وأشرت إلى الأطفال وكانوا يأكلون ولا يبالون شيئاً.

فضحكت ساخرة وقالت فى قسوة بالغة:

— دع الأطفال فما تشفق إلا على حلقك.

فلم أجد بداً من القيام وأنا أغلى غيظاً.

هذه هى ريمة امرأتى التى سودت أيامى. فلم يكن لى من حيلة إلا أن أخرج إلى فناء البيت لأتبرد فى هواء الليل من همى. وكان ضوء القمر يلف الأرض فى غلالة رقيقة، فيجلو أرجاءها فى رفق، لا يقسو عليها ولا يتدسس إلى خفاياها. هناك يستطيع الإنسان أن يهيم فى عوالم الآفاق والسموات فى النور الخافت، فيرى فى شعاعه الضئيل رقص الجان وعردة العفاريث ومحاوره الأشباح وزيارة الأرواح إذ تهبط كلها إلى الأرض تحت أضواء القمر، وتعبث وتنساب فى الأفق الغامض آمنة من النور الباهر الفاضح. وفى ذلك الليل الساجى رقدت مستلقياً على ظهري ناظراً إلى الفضاء الذى لا نهاية له، فكأننى انمحيت فيه وفنيت، أو كأن الوجود كله قد انمحى وفنى فى، فلم يبق من الوجود إلا ما بين جنبى، أو لم يبق منى إلا هذا الوجود الصافى.

ورأيت النجوم الصغيرة تومض بشعاعها الضئيل، وكأنها ترسل حديثها الصامت من وراء الفضاء فى جوف العماء، تحدث بأسرار الكون الأزلى وتخبر عن القرون الخوالى حديثاً قصيراً لا يزيد على لفظ «كانوا». فإذا ما سألتها عما وراءها وما يحيط بها، وعن

حقيقتها وهل بها أحياء مثلى أو فيها ملائكة لا تعرف هموم الإنسان. وإذا سألتها عن الكرسي الأعظم الذى يسعها، لم أجد منها جواباً إلا لمعة تلمعها كأنها تجيب قائلة: «اخساً». فلا يسعنى إلا أن أقول «أيها العقل قف مكانك ولا تقلق هذا الكون السرمدى بثرثرتك». وطرقت أذنى أصوات منبعثة من الساقية الصغيرة التى فى فناء دارى، فتذكرت ذلك الفناء الذى كان فى أيام أبى بستاننا يانعاً. لشد ما تغير البستان على يدى فأنا لا أصلح شيئاً ولا أصلح لشىء! كانت هذه الساقية تدور كما تدور الآن، وكانت ترفع الماء من قرار البئر فتروى به الشجر والزهر. ولكنها عقلت فى الآن لا تخرج ماء. أيها الثور الناعس المستسلم امض فى دورانك فليس كله عبثاً. أليس هذا الصوت الذى يدوى فى سكون الليل لحناً يحيى هذا الفضاء الرهيب؟ ماذا يعينك إذا كانت الساقية ترفع ماء يروى النبات أو لا ترفع من الماء شيئاً؟ حسبك من الدوران هذا النعير الذى يتردد فى سكون الليل فيكسبه جلالاً ويملؤه خشوعاً. حسبك هذا الغناء الذى يشبه الترتيل والتسبيح، ولا تكن أيها الثور أحرق مثل هذا الإنسان الذى لا يتحرك إلا لمطمع فى الحياة. إنك لن تصيب من الحياة إلا ملء مذودك من التبن أو الحشيش. كان كل شىء هادئ فى ذلك الليل يبعث على السلام والسمو، فأحسست وأنا مستقل على أرض الفناء الواسع أن بالحياة أنعاماً متناسقة، ونسيت كل ما مر بى من الهم. الحياة حلوة لمن استطاع أن يكشف ما فيها

من حلاوة. ولو لم يكن فيها سوى أن تستلقى على ظهرك فى ضوء القمر كما فعلت، وتتأمل صور الكون الذى حولك، أو التى فى حنايا صدرك، لكان هذا حسبك. هناك يستطيع الإنسان أن يجد السعادة فى السلام الشامل.

وذهب خيالى إلى ابنة السلطان - أو هى عليّة ابنة السلطان. نعم هى عليّة لأننى لم أعرف اسمها، ولا بأس علىّ إذا مزجت اسم عليّة الحبيب ~~بسمها~~. وهناك استطعت أن أعيش حيناً معها لا تفرق بينى وبينها تلك الفوارق التى تحجبها عنى إذا ما طلعت الشمس. هناك لم أشعر بقوة السلطان ولا عظّمته. هناك عند السماك التقيت بعليّة ابنة علاء الدين بعيدين عن الأرض الضيقة وجهلها ولسخفها.

لقد سمع الناس عن حبى وضحكوا منى وسخروا. نعم سمعوا به وسمعوه منى. وهل علىّ من بأس إذا جهرت بحبها وسمعت أصداء تردى لاسمها؟ إن كل ما عندى كريم نبيل صريح، فقلت وتحدثت وسبحت، وسمع الناس قولى وسخروا منى. ولكن ماذا يعنينى منهم إذا هم سخروا وضحكوا. وقد أفضى صديقى أبو النور إلىّ بما يقولون، وعنفنى علىّ مجاهرته بحبها، وقال إنى أعرض نفسى للهلاك إذا أنا تماديت فى ذكرها.

يعجب الناس منى، ويقولون إنى صعلوك أتناول على مقام لا ينبغى لى أن أتناول إليه. حقاً إنى فقير ولست أدعى الغنى،

وضعيف الجاه ولست أدعى القوة، ولكنى مع ذلك أدرك ما يفوت عقول هؤلاء. إن الأسرار تتفتح لى وينابيع الآيات تتدفق فى صدرى. ولست أعبأ بشيء مما يرغب الناس فيه، ولا أرهب شيئاً مما يرهبون، فما الذى يمنعنى أن أتطلع إلى من أريد؟ وما الذى يلومنى الناس فيه من حب عليّة ابنة علاء الدين؟ أيلومنى الناس على أننى أسبح الله فى حبها؟ لست أتطلع إلى شيء غير صورتها، ولن يستطيع أحد أن يحجب عني العوالم التى أكشفها من تأمل حبها.

إننى أسمى بذلك الحب كما يسمو العابد فى صلاته. وهل الحياة كلها جسد ومادة؟ إن روحى تهيم وتستطيع أن تقضى الأيام والليالى فى الأفق الأعلى، تتغذى من ذلك الشجن الطاهر الذى يشملها، وتتصفى من ذلك الهيام الحار الذى يصهرها... يا عليّة ابنة علاء الدين!

لن أكف عن التطلع إليك والتسبيح باسمك والتماس الحياة العليا من محبتك، وإن لم تقع عينى عليك مرة أخرى.



لو استطعت أن أقضى كل حياتي فى أحلامى لكنت رجلاً سعيداً. ولكن أنى لى ذلك وأنا إنسان لا بد لى من أن أصحو ومن أن أرى وأسمع وأسير؟ أنى لى أن أعتزل فى أحلامى وأنا مرتبط بهذه الأرض وبأهلها ممن هم قريبون منى ومن هم بعيدون عنى؟ ولو كنت وحيداً معتزلاً لهان على الأمر، ولكنى أعيش فى الناس ومع الناس ولا سيما إذا كانت لى امرأة مثل ريمة.

لقد سمعت امرأتى بما يقوله الناس عنى فى حب عليّة، وكنت أحسب أنها إذا سمعت ذلك أصلحت من شأنها وقومت من اعوجاجها، ولكنها ما كادت تسمع ما يقوله الناس حتى ركب الشيطان كتفيها كأعنف ما ركبهما منذ عرفتها. فلم تدع نوعاً من أنواع الأذى إلا ألحقته بى، ولا صنفاً من صنوف الخبيث إلا صبته على رأسى. وأرادت فوق كل هذا أن تذلى فأذاعت هى الأخرى أنها قد عزمت على الزواج من السلطان نفسه.

لكم ضحكت عندما سمعت الناس ينقلون إلى قولها! ريمة تريد أن تتزوج من السلطان! لم يثر قولها فى إلا ضحكاً. فلما رأت أن قولها لم يثر غيظى، عمدت إلى حيلة خبيثة للانتقام منى، فآثارت ضجة يتحدث بها العاطلون فى ماهوش يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر. فإنها أذاعت فى الجيران أنها

قد عزممت على الانتحار. لو كان أمرها قد أدى إلى غايته لكان ذلك قضاء الله وانتهى إلى نهايته. والزواج من مثل ريمة ما هو إلا سباق على الموت بين الزوجين. فإذا كان لابد من الموت فليكن لها هي إذا شاءت. ولكن ريمة لم تهتد إلى ما يجب عليها أن تفعل، وقنعت بأن صاحبت وسبت واصطرعت وتخبطت، ثم خرجت من الدار تجرى. ولم أدرك ما كان قصدها من وراء هذا كله، فتركتهما وقعدت في الدار هادئاً، وأحسست أنني استطعت أن أتنفس حرّاً، وقد هدأ الجو بعد خروجها.

وانصرفت إلى صورة عالية ابنة السلطان أناجيها، فلم أشعر بشيء حتى سمعت هيمّة عالية وأصوات ولولة تطرق أذنى. فشردت أفكاري وقمت فزعاً، فإذا بالحارة قد غصت بمن فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ. وما كادوا يروننى حتى علت منهم صيحة عالية «الحق يا جحا».

فدهشت لهذه المفاجأة ولم أفهم المقصود من قولهم، وماذا الذى ألحقه؟ إننى رجل لم أستطع فى حياتى أن ألحق شيئاً، فكيف لى أن ألحق شيئاً لم يقدر كل هؤلاء على أن يلحقوه. ووقفت ثابتاً أقلب فيهم بصرى.

فصاحوا بى مرة أخرى صيحة أعنف وأكثر حنقاً. ففتحت عيني وفمى وأشرت بيدي مستفهماً. فعلت منهم صيحة ثالثة فقالوا: «الحق امرأتك!» فانطلق لسانى قائلاً: «وكيف ألحقها؟».

فاختلطت الأقوال ولم أعرف كيف أجيب. قال قائل: «الحقها عند النهر» وقالت جماعة: «إنها غرقت» وصاح آخرون: «قد دقت علينا الأبواب» وقال شاب خبيث: «أنتزوج عليها؟ أما تخجل؟» فاندفع النساء يصرخن فى وجهى: «يا سم! أغرق نفسك وراءها يا قاتل».

فلم أملك نفسى وشعرت كأننى أجرمت، وعلانى خجل واضطراب، واندفعت بين الجمع فإذا بى أنساق مع تيار جارف من الناس حتى بلغنا جانب النهر. وتفرق الجمع كل فى جهة، فبعضهم يجرى على الشاطئ، وبعضهم يخلع نعليه فيخوض فى الماء، وصاحت امرأة: «غوصوا فى الماء فإنها تحته بلا شك». وصاحت أخرى: «بل لقد حملها التيار معه، فانحدروا أسفل النهر».

وصاحت ثالثة سليطة اللسان: «مالك واقفاً يا جحا كالحجر؟ انزل إلى الماء وابحث عنها».

ولكنى كنت أعلم الناس بامرأتى ريمة. فإن الناس إذا أرادوا الغرق قذفوا بأنفسهم فى الماء، وأما هى فلم يكن عندى شك فى أنها تفعل غير ذلك. والناس إذا غرقوا نزلوا إلى القاع ولكنها لا يمكن أن تغوص. والتيار يحمل الغرقى معه إلى أسفل النهر، ولكنها إذا غرقت لم تنس العناد، فلا شك فى أنها تجعل التيار يحملها مكرهاً إلى أعلى النهر. هذا ما أعرفه فى امرأتى. ولذلك لم أبال شيئاً مما قاله الناس، ونزعت نفسى من بينهم، وأخذت أعدو نحو أعلى النهر. فلحق بى شبان منهم يريدون أن يردونى إلى

ناحية أسفل المجرى، ظناً منهم أننى أخطأت فى اتجاهى، وظن بعضهم أننى قصدت الهروب. فصحت فيهم وقد غضبت:

- دعونى أيها الحمقى، فأنا أعرف منك بامرأتى. إنها إذا أرادت الغرق فلن تتجه إلا نحو منبع النهر.

وكان الموقف لا يحتمل ضحكاً ولا فكاهاً، ولكنى سمعت من الشبان ضحكاً كأننى كنت أمازحهم. فزاد غضبى ونزعت نفسى من بينهم وجريت نحو أعلى النهر، وتركتهم فى شغل من ضحكهم يعيدون كلماتى ويتفكهون بها.

ولما وجدت نفسى وحيداً سرت على مهل، وتنفست مرتاحاً، وجعلت أقلب وجهى فى شطآن النهر، وكانت الأعشاب تغطيها غضة خضراء، والزهر يوشىها والطير يزقزق فوق أغصان الصفصاف والسرو. وكان جمال المنظر يبعثنى على إطالة السير، ولم يخل قلبى من خطرات خطرت عليه من ذكر الحبيبة ابنة علاء الدين. وفيما كنت سائراً أجيل بصرى فى هذا الحسن الباهر لاح لى سواد تحت شجرة على نحو مائة ذراع منى. فظننت ذلك إنساناً وقصدت إليه لعله رأى جثة ريمة امرأتى صاعدة فى النهر. وما كان أشد عجبى عندما بلغت الشجرة إذ وجدت أن ذلك السواد هو امرأتى ريمة نفسها، وكانت جالسة على الشاطئ تدلى رجلها فى الماء وتحك قدماً على أخرى وفى يدها قطعة من قثاء تأكلها. فلم أتمالك أن صحت بها حانقاً:

- لقد صدق ظنى !

فالتفتت إلى وكان وجهها يشع شماتة وخبثاً وصاحت :

- أى ظن هذا الذى صدق؟

فقلت غاضباً : كل الخلق يغرقون فى الماء وأنت تغرقين فوق الشط. وكل الغرقى يحملهم التيار إلى أسفل النهر وأما أنت فإنك تصعدين إلى أعلاه.

فقامت واثبة واستعدت لهجمة من هجماتها، ولكنى كنت ثائراً والشرر يتطاير من عيني. فصحت بها :

- هلمى !

فلم تجرؤ على مهاجمتى وسارت ورائى فى انكسار، حتى عدنا إلى القوم. وكانوا لا يزالون يبحثون عنها فى الماء متجهين إلى أسفل النهر خطوة خطوة. فلما رأونا مقبلين سارعوا إلينا، واختلطت أسئلتهن حتى لم أسمع منها سؤالاً. فقطعت عليهم سبيل الفضول وقلت لهم فى حزم :

- لقد كنت أعلم منكم بامرأتى.

فسكتوا ونظروا فى شىء من الغيظ إلى ريمة، كأنها قد خيبت أملهم فى غرقها. وسرنا فى موكب متهمس حتى بلغنا ماهوش، وعدت بامرأتى إلى دارى.

هذه هى امرأتى التى لا تخجل من أن تضع نفسها إلى جانب صورة ابنة السلطان - صورة الملك الكريم الذى أصبح معه فى أعلى

الملوك مترنماً بالترتيل والتسبيح. هذه هي امرأتى التى لا ترضى أن يمر بى يوم بغير أن تدخل علىّ حزناً جديداً. هذه هي امرأتى التى لو شئت أن أثبت على القرطاس ما أعانيه من سوء عشرتها لضاقت بى الصحف وتكسرت الأقلام وجف المداد.

وليبتها إذ تنغص على عيشى بخلافها وسوء عشرتها تعرف شيئاً من معنى الكرامة أو الصدق. لقد عرفت من النساء من يشبهنها فى حمقها وشراستها، ولكنى عرفتهن يندفعن مع ما فطرهن الله عليه من حدة الطبع والسلطة وعرفت اندفاعهن صريحاً بسيطاً لا التواء فيه. فلهن العذر فيما لا حيلة لهن فى خلافه. ولكن ريمة امرأة تستطيع أن تضحك وأن تمرح، وهى ذات حظوة عند لكيعات أهل الحى. فإذا اجتمعت بهن أو اجتمعن بها شغلن الملائكة فى إحصاء حماقاتهن، وأحفين أقلامهم فى كتابة أوزارهن. وهى إذ تريد أن تملأ قلبى غيظاً تدبر لغيظها تدبيراً، وتمكر وتحال وتحكم مكائدها فى براعة توحى إليها بها شياطينها.

وهى فى كل مكرها تتعمد أن تذلنى وأن تجعلنى للناس سخرية وتعين أشياعها من الشياطين على أن يهزأوا بى من وراء ظهري. هذه هي ريمة امرأتى التى حكم القضاء على أن أقيم معها تحت سقف واحد، وأن تكون لى منها ذرية تشاركنا ما نحن فيه من شقاء. فكيف أستطيع الحياة على مثل هذا؟ لمن شرع الله الطلاق إذا لم يكن قد شرعه لمثلنى ومثلها.

أيها الناس من كان منكم زوجًا لمثل امرأتى ريمة فليطلق. لقد
عزمت على الطلاق ولن أعيش مع ريمة بعد هذا أبدًا.
ولكن أواه من قلبي، إن لى ولدين من ريمة، وما ينبغي لى أن
أشقيهما بشقائى. عفوك يا عجيب ولدى وعفوك يا جميلة ابنتى!



كلما تذكرت ولديّ كاد قلبي يتقطع رحمة لهما ورقة، ولن أقطع ما بيني وبين ريمة من أجلهما. إنهما بهجة عيشي لا بهجة لي غيرها سوى ذلك الخيال الذي يملأ قلبي من عليّة ابنة علاء الدين. فلأجعل هؤلاء عزائي، ولأتحمل ما استطعت تنكيد امرأتي وسوء عشرتها. أي جميلة ابنتي! إنك قطعة من كبدي، وحسبي أن أقول من كبدي. وأنت يا عجيب ولدي. إنك الحبيب الخبيث معاً. وإن خبتك ليحلو لي وإن كنت في بعض الأحياء أضيق به ذرعاً. وولدي عجيب من تلاميذ هذا العصر الحديث الذين يعتقدون أنهم ناشئة جيل جديد قد تقدم، وأصاب غير ما أصابت أجيال آبائهم من الذكاء والعلم. وهو مثل أبناء جيله يسىء الظن بجيل الآباء بقدر إحسانه الظن بنفسه. ولا عجب في ذلك فإنه أمر تقضى به سنة الكون منذ خلق الله جيلاً بعد جيل. فكل جيل يبدأ في تحصيل المعرفة، فيظن أنه قد أوجد تلك المعارف أول مرة. وكل منها يذوق أول طعم تجارب الحياة فيكون كل شيء عنده جديداً فيحسب أنه قد كشف شيئاً لا عهد لأحد به من قبله. فلم لا يكون ابني كذلك؟ لست ألومه على ذلك الوهم فهو أمر طبيعي، سبقته إليه ألوف من الأجيال. وكلما رأيته منتفخاً بأوهامه تبسمت، وتذكرت أحوالي إذ كنت في

مثل سنه، وأرد له دين الرحمة الذى كان لأبى فى عنقى. هكذا نحن نسدد ديون الآباء للأبناء.

ولو كان عجيب ابنى يقنع بسوء الظن بجيل أبيه لوافقته واستحسننت صنعه فقد عاشرت هذا الجيل وعرفته معرفة لم تتح لابنى. وكلما مرت الأيام بى زدت يقيناً أن هذا الجيل خلقة شاذة من السخف والجهل. ولست أبرئ نفسى فأنا كذلك خلقة شاذة من هذا الجيل، فأنا شاذ فى جيل شاذ. ولكن المصيبة الكبرى أن ابنى يحسن الظن بنفسه وبأبناء جيله، مع أنى لا أرى إلا زيادة متصلة فى التخليط والخبث.

وقد ولع ابنى بما يسميه الأدب، واستهتر به استهتاراً عظيماً، حتى بلغ به الأمر أن صرف همه إليه ولم يبال ما يكون حاله فى مستقبل أيامه. حقاً إننى لم أصنع فى حياتى ما أحمده وقد تركت نفسى أتخبط مع الأيام فلم أحسن عملاً ولم أستطع شيئاً وشهدت على نفسى بأننى لا أصلح فى صنعة. ولكنى مع ذلك لا أريد لولدى ما جربت أثره فى حياتى. على أن ولدى قد فهم من الأدب القشور وغاب عنه اللباب. رأيته يوماً يشتري معجماً، ثم رأيته يقبل عليه كلما وجد فراغاً، فيحفظ من ألفاظه كل ما شذ واستعجم. وتعود بعد ذلك أن يستعمل تلك الألفاظ فى كتابته وحديثه وولع بعبارات يجمعها فى قراءته من كل ما هب ودب من كتب هؤلاء المساكين المخدوعين الذين يحسبون أن الأدب لا يزيد على طمس المعانى

والقاء الألفاظ سحباً سوداء عليها تجعلها غامضة مبهمه. فإذا قرأ القارئ مثل هذه الكتب لم يدرك لها معنى فلا يسعه إلا أن يتهم نفسه ويسئ الظن بفهمه، ويدفعه اليأس إلى أن يقول مع القائلين إن هؤلاء الكتاب من نوايغ الأدب. ولقد طالما صدع عجيب رأسى بما يقذفه عليه من عبارات هؤلاء البائسين. فهو يتغنى بالضوء الذى يداعب أعطاف السماء وبالنشوة التى تتمشى فى الظلال الناعمة، وبالسحر الذى يتموج فوق مجالى النبضات اللانهائية. وقد كنت ليلة جالساً وحدى فى حديقة دارى، أتمتع بضوء القمر الزاهى فسمعت ولدى يتغنى بأبيات مما يسمونه الشعر وكان لابد لى أن أسمع غناؤه وإنشاده، فقد كان الليل ساجياً ليس فيه ضجيج أحتمى فيه من السماع. وما أزال إلى اليوم أقشعر كلما مرت أصداء تلك الأغنية بخاطرى. كانت شيئاً لا معنى ولا وزن له، ووالله لو كان ذلك شعراً لاستطاعت كل عنز فى حقول ماهوش أن تكون شاعرة. كان عجيب يتغنى بشيء مثل هذا:

الشجر والطير والسحاب والنور والحب والضباب

فشعرت بدوار فى رأسى وغصة فى حلقى وصحت به: «اخرس». ولكن الخبيث أقبل نحوى فى حماسة شديدة، وجعل يترجمنى رجماً متصلاً بإنشاده حتى أوشكت أن يغمرى على. ولم أستطع أن أصرفه عنى إلا عندما قلت له:

— هذا مذهش فاذهب إلى أمك لتدخل به السرور على قلبها.
وقد عرف عجيب ابنى بالنبوغ فى الأدب بين لداته وتمكن
منه الوهم فاعتقد أن الله قد وهب له من فضله ما لم يهبه لسواه.
وجعل يسألنى عن أسماء شياطين الشعراء ليختار له واحدًا من
بينهم ظريف الاسم كريم السابقة.

وكثيرًا ما أفضى إلى بأمله فى أن يكون كبير الأدباء فى جيله.
فتأخذنى الشفقة عليه فأهز رأسى صامتًا. فليمض كما شاء الله
له ولا حيلة لى فى صرفه عن وهمه، والزمن وحده كفيل بحل
مشكلات الحياة. إن تيار الحياة يحمل الإنسان فى سبيله كما يريد
هو لا كما يريد الإنسان. ولا عجب إذا كان ابنى يصبح كبير الأدباء
فى عصره فإنى رأيت العصر يصير من فساد إلى فساد ولعل هذا
الأدب الممسوخ يكون فى عصره آية الإبداع فى أنظار أهله، والعبرة
بأبناء ذلك الزمان لا بنا نحن. ومع ذلك فإنى لم أتمالك نفسى يومًا
أن أخوض مع ولدى فى مناقشة صاحبة عندما سمعته يتحدث عن
الأدب فى حماسة حمقاء. فقلت له ناصحًا:

— ماذا تريد من ذلك الذى تسميه الأدب؟ حقًا إن اسمه محبب
إليكم معاشر الأبناء، لأنكم تسمعون منا أن الأدب محمود. ولكن
الأدب الذى تتحدث عنه شيء آخر. فقال لى متبرمًا:

— أظننى لا أعرف معنى الأدب؟ لقد حفظت تعريفه على شيخى،
وأنا أعرف عن عظماء الأدباء أكثر مما تظن. فضحكت وقلت:

– عظماء؟ يا خبر!

فقال وقد نفخ صدره:

– بلا شك. إنهم عظماء وخالدون. وسأكون أحد الخالدين.
فقلت:

– إذن مت جوعًا.

وما كان أشد عجبى إذ سمعته يقول:

– فليكن، وماذا على لو مت جوعًا إذا كنت من الخالدين بعد موتى؟ إنها ضريبة العظمة. إنها ثمن الخلود.
فنظرت إليه وهزرت رأسى أسفًا إذ أننى أبوه الذى جاء به إلى الحياة.

ولست أدري من ذا الذى يلقي مثل تلك الأوهام فى عقول هؤلاء
المساكين؟ أم لعلها تنبت فى الرءوس بغير أن يلقي أحد بذورها
كما تنبت الحشائش على جانبى نهر ماهوش.

ولو كان أمر عجيب ولدى لا يزيد على هذا الهراء لهان الأمر
عندى، ولكنه كاد يؤدى به يومًا إلى الهلاك – حماك الله يا ولدى.
كنت يومًا جالسًا فى الحديقة عند الساقية فمر بى عجيب وكان
يقرأ فى معجمه. فلما اقترب منى نظر إلىّ باسمًا فى خبث. وكان
ظريفًا فلم يعرج علىّ ولم ينشد لى شيئًا من تأليفه ولا من محفوظه.
فلما بعد عنى لم تبعد صورته عن ذهنى، وجعلت أفكر فى حاضره
وفى مستقبله وأسأل الله له الهداية. ثم جاء صديقى أبو النور فجلس

إلى جانبى وأخذنا نتحدث فشاركنى فيما كنت فيه من التفكير فى أمر ولى. ولما رآنى لا أرى له صناعة الأدب سألتنى فى سذاجة: - وهل اخترت له صناعة أخرى تكون أجدى عليه؟ فاندفعت قائلاً فى حماسة:

- ماذا تقول يا رجل؟ لقد حسبك أعلم بالحياة من ذلك؟ إن كل صناعة أخرى وكل تجارة غير هذه المهنة أجدى على أى شاب يريد أن يحيا. فليكن طبيباً إذا شاء أو حجاماً أو منجماً، فلن يزاحمه فى صناعته إلا من كان له شىء من العلم بصناعته. فالناس يفتحون أعينهم ويسألون عن الطبيب قبل أن يسلموا إليه أبدانهم للعلاج، ويسألون عن الحجام قبل أن يأذنوا له بأن يسيل الدم من عروقهم، ويسألون عن المنجم قبل أن يعطوه أجره على تضليلهم. أو فليكن فقيهاً فإنها تجارة رابحة ولن يزاحمه فيها إلا من كابد مشقة الحفظ وأعمى عينيه من طول القراءة. أو فليكن خبازاً فالناس لا يتدسسون بين الخبازين إذا لم يكونوا قادرين على صناعة الرغيف. فليكن أى شىء من هذا أو غير هذا لأنه عند ذلك يصير صاحب حرفة محدودة معروفة، لها قيود وفيها أسرار تمنعها عن الدخيل وتحميها من الدعى. ولكن لا يبلغن به السفه أن يدخل برجليه إلى تلك الرملة الخوانة التى يسمونها صناعة الأدب.

وقد نسيت فى حماستى أننى أخاطب صديقى، وحسبت أننى أتحدث إلى نفسى لا يسمعنى أحد غيرى، ولكنى شعرت فجأة بهزة فى ساعدى. فتنبهت فإذا أبو النور يقول لى:

- أقول لك أما تسمع؟

فسكت وتلفت حولى فطرقت أذننى صرخة مكتومة كأنها خارجة من بطن الأرض. فقممت مع صاحبى نركض باحثين عن مبعث الصوت فى أنحاء الحديقة، فلم نجد شيئاً. واتهمنا أسماعنا وعدنا إلى الساقية نلقف أنفاسنا. وهممت أن أسأل صديقى عن رأيه فى الأشباح التى ترفع أصواتها فى الليل هل يمكن أن تصرخ فى وضح النهار، وإذا بالصراخ المكتوم ينبعث مرة أخرى كأنه يصعد من تحت أقدامنا. فنظرت إلى صديقى مدهوشاً وهمست:

- بسم الله الرحمن الرحيم.

ولكننى رأيته يذهب إلى شفة البئر تحت الساقية وينظر من فوهتها. فسرت وراءه وأطللت برأسى فماذا رأيته؟ كان هناك رأس ولدى عجيب فوق سطح الماء، وهو يحاول أن يسند نفسه على الجدار الأملس ويضطرب برجليه فى الماء. وسمعته يصيح:

- الوهس! الوهس! الوحي الوحي، الجدار المتلمس يحاور كفى وسراب الماء يداعب أنفاسى والهلاك المشمخر يراود أجلى. وكان يريد الاستمرار فخشيت عليه وصحت به:

- اخرس، ماذا الوهس وماذا الوحي؟ وما ذلك الذى يداعب

ويراود ويحاور؟

فرفع رأسه نحوى وقال متحدياً:

- لقد رأيت الوهس قبل سقوطى فى البئر ومعناه الجرى السريع.
وأما الوحى فمعناه العجل ، وأما الجدار المتلمس الذى يداعب يدى
فهى عبارة رائعة نقلتها عن الأديب الكبير...
وأراد المضى فى قوله فصحت به مرة ثانية:
- دع هذا وقل لى أين الحبل؟ أين الحبل الذى كان هنا على
بكرة البئر؟
فقال فى انكسار:

- هو الذى انقطع بى وأهوانى فى ثبج!...
فقاطعته قائلاً: قلت لك اخرس.
ثم نظرت حولى فلم أجد شيئاً أنقذه به، حتى وقعت عيني
على عمامة صاحبي فنزعتها عن رأسه ثم نزعت عمامتى وأخذت
ما حولهما من اللقائف، وساعدنى صاحبي على برمها حتى صارت
كالهبل شدة ثم دليناها إلى الولد فأمسك بطرفها وتعاوننا على رفعه
حتى أخرجناه وهو مثل القط الغارق.
وأخذ صديقى لفافته وهو صامت فعصرها ونشرها، وأما أنا فسرت
عارى الرأس مع ولدى حتى بلغنا البيت ودفعته إلى أمه قائلاً:
- أصلحى أمره واعتنى به حتى لا يفجع الجيل الجديد فى كبير
أدبائه.

فنظر إلى الخبيث وهو يرتعد من البرد وكاد يرد على جواباً لولا
أن اصطكاك أسنانه لم يساعده على الكلام.

ورجعت إلى صديقي فوجدته لا يزال يهز أطراف لفافته
ليجففها. فداخلني إشفاق عظيم عليه وقلت في حرارة:
- أشكرك يا صديقي فلولاك لهلك ولدى.

فقال أبو النور:

- لم ألاحظ شبهه بك إلا اليوم.
فلم أدر ماذا حدث بي عند ذلك، ولكنني شعرت بالضحك يغلبني
وكان ضحكاً متصلاً معدياً بغير شك. فما مضت لحظة حتى كان
أبو النور يضحك معي وهو يهز أطراف لفافته بيديه.



كنت أسير فى طريق ماهوش - وما أعجب طرق ماهوش ! ففيها النقيضان الجمال والقبح والغنى والفقر والنظافة والوسخ والفن والفوضى - ورأيت فيما رأيت كلباً مسكيناً نستطيع أن نعد أضلاعه البارزة من تحت جلده. وكان كل شىء فيه يستدر الرحمة. وكان كلما اقترب منه إنسان انحرف عنه مسرعاً يتمايل من الضعف، وقد وضع ذيله بين فخذه، فقد تعود النفور من أشباح البشر. وكان فى ركن الطريق كوم من الزبالاة اعتاد الناس أن يرموا عنده فضلات منازلهم، فاتجه الكلب نحوه يطلب منه رزقاً. مسكين أيها الكلب فإنك لا تجد فى ماهوش ملجأ آخر غير ذلك الكوم. فلما بلغ ركن الطريق رأيته فزع وتردد، فقد رأى عنده شبح إنسان. ولكنه لم يلبث أن هز ذيله وتجراً على الاقتراب منه، إذ لم يكن ذلك الشبح سوى فتاة مسكينة مثله. فتحول نظرى إلى الفتاة، وكان وجهها أسود مما علاه من القذر، ويدها كأنهما عودان من حطب، ووجهها النحيل كأنه جمجمة فى مقبرة.

ونظر الكلب إليها كأنه يحييها تحية الصباح قائلاً «يا زميلتى». فلم تخيب المسكينة رجاءه ورمت إليه بعظمة. نعم فلم تكن العظمة نافعة لها.

ووقف الكلب يأكل عظمته، على حين كانت الفتاة تقلب في الكوم باحثة عن قشرة فاكهة أو قطعة خبز أو خرقة من ثوب بال. ولم أستطع أن أطيل النظر إليهما فأنصرفت وقلبي يدمى ولكنى لم ألبث أن وجدت قلبي يحملنى إليهما. حتى إذا ما بلغت الفتاة ألقيت إليها بدرهم كان معى، ولم أجد عندى عظمة أخرى أرميها لصاحبها. أواه. أهكذا تنطوين على القسوة يا ماهوش؟ ولما انصرفت عن الفتاة رآنى رجل يجلس فى حانوت فاكهائى قريب. فقال لى:

– ألا تعطينى درهماً يا جحا؟

وكنت حزينا فلم أجبه. فأعاد قائلا:

– أتؤثر النصرانية؟ إنها نصرانية تلك التى رميت إليها الدرهم. فلم أجبه إلا بنظرة أسف، ومضيت فى طريقى أفكر فى هذه النصرانية المسكينة. ولو ملكت أكثر من ذلك الدرهم لعدت فرميته إليها. إن الله يطل على الكون بعين الرحمة لا يفرق بين الناس والحيوان، فلكل حى فى هذا الوجود مكان فى رحمته. وإذا نحن وقفنا بين يديه يوم الحساب لم يكن لنا أمل إلا فى رحمته. وما أجدرنا نحن البشر أن نرحم، لعلنا نكون أهلا للدخول فى رحاب الله. أى بلدتى الحبيبة ماهوش، ألا تحبين أن تكونى أهلا لرحاب الرحمن؟ لقد عشت ما عشت فى وطنى أحب هواءه وشمسه وقمره، وأتمتع بماء نهره وخضرة حقوله وغناء طيره. ولكنى مع ذلك لم أستطع أن أعيش بين أهله. ويخيل إلى أحيانا أننى قد أتيت إلى هذا العالم

لكى أكون عبرة لغيرى. لست أصلح لشيء غير أن أعيش فى خيالى
هائماً فى عالمى، لا أبصر شيئاً مما حولى، ولا أعرف لى سبيلاً فى
هذه الأرض التى لا أدرى فيها إلا صوراً وأشباحاً. كاد يخيّل إلى أن
عالم الوهم هو الحقيقة، وأن هذا العالم الذى ألمسه وأراه وأسمعه
وأذوقه ليس سوى خيال.

تصدمنى الحياة كل يوم صدمة تذهلنى، فأعود إلى عالمى الخيالى
وأقنع بما فيه مكرهاً لأنه هو العالم الذى أستطيع أن أعيش فيه.
فإذا ما حاولت أن أقترّب من زحمة الناس تبين لى عجزى ونقصى.
ولو كنت لا أحمل إلا همومى لهان الأمر عندى، لأننى ألقى
قضاء الله راضياً. هكذا أنا وهذا قضائى ولا أملك إلا أن أرضى بحظى.
لا أستطيع أن أكابر فى نصيبى، فأنا لا أستحق إلا هذا النصيب عند
العادل المهيمن على الكون.

لو كنت لا أعانى إلا ما يجره عليه طبعى لهان الأمر عندى
ولكنى كلما تلفت إلى ما مضى وما حضر من أيامى لم أجد إلا أحمالاً
حملتها لم يكن لى وزر فيها. كانت كلها أحمالاً ألقيت على كاهلى
إلقاء، لأننى لم أقو على ردها عن عاتقى.

وقد شبهت نفسى بصديقى العزيز «البطل الصامت» الذى يسميه
الناس «حمارى» فهو يقضى كل حياته يحمل أحمالاً ليس له فى
حملها مصلحة ويقطع عمره فى جهد قاطع متصل لا يصيب منه
لنفسه خيراً.

لقد تعود الناس أن يسب بعضهم بعضاً بوصف الحمار ولهذا
فلست أَرْضَى أن أشارك الناس في سوء الأدب فلا أسمى ذلك الحمار
إلا «البطل الصامت» فهذا ما يقتضيه العدل منى. والناس يعجبون
منى إذا سميته كذلك ويضحكون ويسخرون ويحسبون أننى أريد
أن أسوق إليهم فكاهة. يا للغباء! ولكن ما ضرني إذا هم ضحكوا
وسخروا؟ فلعل هذا يدخل إلى قلوبهم شيئاً من السعادة البلهاء.

إن صديقى البطل الصامت أكرم عندي من كثير من هؤلاء الذين
يحملونه أحمالهم ولا يتورعون عن إلحاق الأذى به ضرباً ووخزاً
وشتماً. وهو مع ذلك يبذل جهده صامتاً صابراً قوياً حتى إذا ما تهدم
وخارت قواه برك على الأرض وتجلد على الضرب القاسى. وهؤلاء
الجيران لا يزالون كل يوم يقصدوننى لكى يستغيثوا منى صديقى
ليحمل لهم أحمالهم فأخجل أن أردهم. فأذهب إليه أسأله عن رأيه،
فإذا بهم يضحكون منى ويحسبون أننى أمازحهم. فإذا ما رأيت
صامتاً لا يجيب أذنت لهم به نائباً عنه، فإنى أعرفه صديقاً كريماً.

ولست أظن أننى خير منه حالا. فإن جيرانى يأتون إلى فى كل
يوم يسألوننى أنا أن أحمل لهم أحمالهم فلا فرق بينى وبين البطل
الصامت إلا أننى أحمل أشياء من صنف آخر غير ما يحمل. ولا أذكر
يوماً أن جاءنى واحد منهم ليؤدى ما عليه من دين، أو ليتطوع
بإحسان أو مواساة. والله لو تطوعوا بالإحسان إلى لما رضيت منهم
إحساناً، فإن نفسى تأنف أن تكون يدى السفلى.

ولكنى أصف الحال كما هي وأفضى إلى هذه الكراسية بما فى نفسى. قد يكون لى على بعضهم دين فأحتاج إليه وأسعى فى طلب الوفاء، حتى لا أكلف المدين مشقة السير إلى دارى، فإذا عثرت عليه يومًا أزأغ بصره عنى كأنه لم يرنى.

كانت لى عند الشيخ عماد الدين أمانة من مالى، أقرضته إياها فى أيام محنته. فلما عادت إليه الدنيا قلت فى نفسى إن هذه فرصة لى وأنا أقاسى مر الحياة وضيقها. فلما ذهبت إليه عثرت عليه فى حلقة من الناس، يلقي عليهم درسًا. فما وقعت عينه على حتى أخذ يهز لحيته فى عنف، ويبربر كما يبربر الأسد.

ومضت ساعة حتى فرغ الشيخ من درسه، ولكنه بقى حيث كان حتى أتت طائفة أخرى فتحلقت حوله. وكان الشيخ ممن يعتقد الناس فيه، فكانوا يذهبون إليه طلبًا للبركة وإن لم يأخذوا علمًا. فلما طال بى الانتظار ضقت ذرعًا، وثارت نفسى، وكنت أسمع حديثه على مضض ولا أفهم منه حرفًا، فقد كان الرجل يلقي هراء. ورأيت بقائى عنده سفهًا، فإن ساعة أقضيها فى ضوء الشمس أجدى على وأشرح لصدري. وثار غضبى فصحت قائلاً:

— يا سيدى الشيخ.

فنظر إلى مغضبًا كأنه لا يعرفنى. فزاد غضبى وثار الدم فى رأسى فقلت له:

— أما تعرفنى؟ أما رأيت من قبل وجهى ولحيتى؟

فهز الشيخ ذقنه ولمعت عيناه لمعة مخيفة، ثم نظر إلى نظرة قصيرة وعاد إلى الحلقة يريد أن يمضى فى درسه.
فغاضنى ذلك وصحت به :

— لا بأس على هؤلاء إذا غبت عنهم ساعة يا سيدى. فتعال معى إلى الدار لترد إلى أمانتى، ولا ضير على تلاميذك أن يهز أحدهم لحيته فى مكانك حتى تعود إليهم.

ولست أدرى كيف أغضب الحق هؤلاء، وقد كنت أحسبهم يشكرون صنيعى. فقاموا جميعاً فى وجهى يشتموننى ويسفهنون رأىى.
فلم أجد بداً من الخروج ونظر الشيخ إلى شامتاً. وانصرفت وتركته يهز لحيته هزاً عنيفاً.

وما كدت أعود إلى منزلى حتى سمعت طارقاً على الباب، فقلت فى نفسى «من يكون هذا؟» وما فتحت المصراع حتى رأيت جارى جمال الدين يطل برأسه باسمًا. وقد كان آخر عهدى به يوم جاء يطلب منى البطل الصامت ليحمل له بعض التبى، فأذنت له به، ثم اتفق أن مررت بداره عند غروب الشمس فرأيت منظرًا يذيب القلب حسرة، إذا كان من طبعه أن يذوب. رأيت البطل الصامت المسكين واقفًا عند باب البيت وعليه حمل من التبى يبلغ علوه قامتين وقد تربعت فوقه امرأته، وكان رأسها يبلغ نافذة الدور الأعلى من الدار. وكان الشيخ واقفًا من وراء البطل الصامت يدفعه ويضربه ليدخله فى الباب قسرًا وكان يصيح به وهو يضربه :

- حاحا! يا حمار الكلب. حاحا! لعنك الله ولعن صاحبك.

وكان البطل الصامت يحاول جهده أن يدخل من الباب ولكن حمل التبن كان لا يريد أن يدخل، وكانت المرأة فى أعلاه تصيح من فوق قائلة:

- اثن رجلية حتى يبرك فيقدر على الدخول.

فلما وقع نظرى على صاحبى المسكين فى تلك الحال غضبت وجريت لنجدته. ولكن جارى لم يرض عنى إذ تدخلت فى أمره ثم غضب فأمر امرأته أن تنزل، وألق الحمل عن البطل الصامت فى حنق وهو يبرطم، ثم دفعه إلى فى غضب.

عادت إلى تلك الصورة عندما رأيت رأس جارى يطل باسمًا من وراء مصراع الباب.

ولم ينتظر حتى آذن له فى الدخول فحيا ودخل وسار أمامى متجهاً إلى المنظرة، فلم أجد بداً من السير وراءه، ولم أملك نفسى أن نطق بكلمات الترحيب والتأهيل.

ولما استقر به المجلس جعل يحدثنى عن أحزانه وآلامه، وما نكبه الزمان به حتى نسيت كل أحزانى وآلامى وامتلأ قلبى له رقة ورحمة. ثم قص على قصة بقرته وقد ولدت منذ ليلة، وكان ابنها عجلاً مشوهاً له صورة القرد وذيل الخنزير وحوافر البغل فأحسست ألماً ممضاً من الحزن لهذا العجل المسكين، حتى اسودت الدنيا فى عينى. ثم تنبعت إلى أن الذى يحدثنى إنما هو جارى

جمال الدين الذى رأيتَه يضرب صاحبى البطل الصامت ويشتمه
ويسميه حمارًا. فداخلى الجحود وقلت لنفسى «ومالى أنا إذا كانت
عجول الناس شائهة الخلقة؟ إن هذا لا ينبغى له أن يهمنى».

وقوانى ذلك الخاطر فقلت لجارى فى جمود:

– ليس هذا من الشأن، وإن كان لك أن تحزن عليه وتضيق به.
فدهش الحاج جمال الدين وخجل، ولكنى بقيت على جمودى
وقلت له:

– أتريد منى شيئاً يا سيدى؟ فإننى فى حاجة إلى الراحة.

فقال الحاج وقد اتسعت بسمته:

– ألا تساعدنى أيها الجار العزيز؟

فقلت فاتراً:

– إذا كان ذلك فى طاقتى.

فقال ولا يزال باسمًا:

– لا شك فى أنك تستطيع يا سيدى.

ثم طلب إلى أن أعيره (حمارى).

هكذا قال وسمى احبى البطل الصامت (حمارًا) أمام عيني.

فقلت وقد غلى الدم فى رأسى:

– سأخذ رأى «البطل الصامت» أولاً.

فقال ضاحكًا: «البطل الصامت»؟

فقلت :

– نعم هو «البطل الصامت» وأحب منك إذا عدت إلى ذكره مرة أخرى ألا تسبه فتدعوه «حماراً».

فتبسم الرجل ولمعت عينه خبثاً ثم قال :

– سأفعل يا سيدى. وإذا شئت فقم إليه فخذ رأيه.

فلم أبال خبثه، وقمت إلى المذود فمسحت رأس البطل الصامت وظهره، فرفع رأسه إلى وجعل يتشممنى. فملت عليه وسألته بصوت مسموع :

– أتحب أن تخدم هذا الجار الذى عرفته؟

ولست أدري ماذا فهم البطل الصامت من قولى، ولكنه نظر إلى الحاج جمال الدين وأخذ ينهق نهيقاً عالياً.

فقلت لجارى: إنه لا يرضى.

فقال الجار قد لمعت عيناه بخبث أشد :

– ألا تسأله عن السبب؟

فملت على البطل الصامت فهيمت له همسة ثم رفعت رأسى.

فقال الحاج: ماذا أجابك؟ أراك تفهم لغته.

فلم أبال سخريته وقلت له :

– لقد قال لى إنه سمع فى صباه حكمة من شيخ فى قومه.

فضحك الرجل ضحكة مبتذلة، ولكنى لم ألتفت إليه وقلت فى غير تردد:

– خير لك أن تأخذ الحكمة حيث تجدها: «حمار ما هو لك ظهره شديد».

فنظر الرجل إلى نظرة تنفث سمًّا، ثم قام سريعًا وأدار ظهره وخرج من الدار بغير أن يقرئنى سلامًا.

ألا ليتنى أستطيع ألا أحمل سوى هموم نفسى.
ألا ليتنى أقدر ألا أسعى إلا لخير ولا أنظر إلا فى مصلحتى
وتدبير أمرى.



لا أجد فى ماهوش كلها من له قلب يحمل المودة الصافية
سوى صديقى أبى النور. هو كالماء الصافى البارد إذا اشتد الحر،
وكالنسيم البليل يمسح الجبين المحموم فى تواضع، وهو كالنور
يهدى ولا يصدم... هو روح ونكاء وخير ومواساة. وهو يعطى من
نفسه ولا يبذى ما ينم عن أنه يعطى. عيناه الغائرتان تملؤهما
الرحمة، وصوته الخافت ينبض بالإخلاص. حتى لحيته الخفيفة
تبعث الثقة وتوحى بالصدق.

كنا جالسين نتحدث فى حديقة الدار - حديقتي الجرداء - وممر
بنا الوقت سريعاً كما تمر ساعات الأنس. ثم لاح رجل يخطو فوق
السور داخلاً. واتجه الرجل إلى باب الدار، وكنا نجلس فى ستر
بعض جذوع الشجر على مقربة من الساقية. فقال أبو النور:
- قم إليه لعله رجل جاء يدعوك إلى وليمة، أو لعله جاء إليك
بهدية أو يرد إليك ديناً.

فقلت له: أما إنك لم تعرف الناس يا صديقى. لو كان كذلك لما
تخطى السور صامتاً، ولصاح معلناً حتى يعرف أهل الحارة فيم أتى.
وقمت مسرعاً إلى نخلة قريبة فاخفيت وراء جذعها، وقلت
لصاحبى:

- قم أنت إليه وقل له إننى لست هنا.
فقام أبو النور يسعى إليه، وكان ضعيف البصر، فما رآه حتى
كاد يصطدم به. ثم قال له فى تردد:
- جحا يقول لك إنه ليس هنا.
فصاح الرجل به:
- أما تستحى أن تكذب؟
فغضب أبو النور وقال:
- لست أكذب فقد قال لى هذا.
فقال له الرجل:
- بل تكذب فهو هنا.
ولم أطق أن أسمع هذه المحاورة السمجة، وأطللت برأسى من
وراء الجذع فصحت قائلاً:
- وما لجاجتك أيها الرجل فى شأنى؟ ألم تسمع ما قاله لك؟
ولكن الرجل الجرىء لم يعبأ بصياحى. فضحك وانطلق نحوى
ومد يده إلى من وراء النخلة. فخجلت ولم أجد بداً من أن أمد يدي
للسلام عليه. وما كدت أرفع عيني إليه حتى شهقت شهقة كمن
رأى منظر عفريت فجأة. وصحت قائلاً:
- أهو أنت؟
فقال الرجل: نعم هو أنا. أنا صديقك القديم.
وكان حقاً صديقى القديم الحاج جمال الدين.

فقلت له مرتبًا:

- لا مؤاخذه يا سيدى. ولكنى أرجوك إذا أردت أن أعيرك البطل الصامت...

فقاطعتنى فى لهجة تنم عن خبث:

- لا تخش يا صديقى فما بى من حاجة إلى البطل الصامت.

فأنشرح صدرى عندما سمعته يذكر البطل الصامت بغير أن يسميه حمارًا، ودعوته للجلوس معنا. فأخذ يثنى على ويترحم على أبى، حتى لان قلبى له ونسيت كل ما كان منه. ثم بدأ يتكلم فيما جاء له. وكان قلبى يغوص فى صدرى كلما مضى فى حديثه، حتى كاد يبلغ كعبى.

نعم فقد جاء يطلب منى قرضًا، ثلاثين درهماً نقدًا وعدًا. فتحركت حركة مضطربة كأننى أبحث عن مهرب ألجأ إليه، ولم أجد سوى صديقى أبى النور فقربت منه ولزقت به، والرجل مستمر فى كلامه يصف شدة حاجته وصدق نيته فى الوفاء، ووعد ألا يبقى الدين عنده أكثر من أسبوع. ثم قال لى إنه فى خطر من تطليق زوجه أم ولده، إذا هو لم يجد عندى الدراهم الثلاثين، فأكون أنا السبب فى خراب بيته وتعذيب أهله وتفريق أسرته. ولست أكتف أننى شعرت بالرحمة تدخل إلى قلبى، عندما تصورت الرجل وامراته وأولاده، وما قد أجره عليه من الويل إذا عجزت عن إغاثته. وجعلت أقلب الفكر وأتلفت حولى وأسأل نفسى عما عندى،

وأنا صامت حائر والعرق يتصبب من وجهي ويتقاطر على جوانب جسمي. وكان ما يزيد حيرتي أنني لم يكن عندي من النقود شيء مما يطلب مني، وما كنت أقوى على الاعتذار له بقلة ذات يدي. أطلع الرجل على حقيقة أمري؟ أقول له إنني لست أملك من هذه الدنيا ثلاثين درهماً؟ أنطق بهذا معتذراً فيحسبني كاذباً؟

لقد عشت حياتي أطلب الستر، وأخشى فضول الناس، وكم كابدت في إخفاء فقرى، وكم عانيت من المشقة في التجميل والتعفف، ثم يجيء هذا الرجل يطلب ثلاثين درهماً فيفضحني؟ هذه ساقيتي لا تخرج ماء، ولكنى حرصت على أن تبقى دائرة حتى لا يقال إنني وقفتها عجزاً. وهذه حديقتي لا تثمر، ولا أرضى أن أبيع منها قيراطاً خوف أن يشمت الناس بي. كان يكفيني من ساقيتي نعيها ويكفيني من حديقتي اتساعها طلباً للستر في أعين الناس. فهل كان يجمل بي أن أعتذر للرجل عن ثلاثين درهماً فأطلععه بذلك على رقة حالى وقلة ذات يدي؟ هذا محال. ثم كيف أتركه يطلق امرأته من أجل مبلغ زهيد؟

فلا بد من الاحتياال في الأمر وإن كلفني شططاً. وأخذت أعد ما عندي من الأموال فلم أجد سوى الثور الذى يدور بساقيتي. فقلت فى نفسى «أبيعه يوم السوق وأقرض جارى من ثمنه، فأبلغ عنده عذرى، فإذا رد الدين لم أعدم ثوراً آخر أشتريه».

دارت كل هذه الأفكار فى رأسى وأنا مطرق صامت، ووجه صديقى أبى النور يحمر حيناً ويصفر حيناً، ووجهى يسخن ساعة ويبرد أخرى. ونظرت إلى عيني أبى النور فرأيت فيهما دمعتين حائرتين كأنه أدرك كل ما يجول فى نفسى. فمال إلى وقال هامساً: - ما كلف الله نفساً إلا وسعها، ولا يسع المقل إلا الاعتذار. فشجعنى قوله فنظرت إلى ضيفى وقلت مرتبكاً. ليس عندى الآن ما تطلب يا سيدى. فإذا كنت تنتظر على حتى أبيع هذا الثور يوم السوق..

فقاطعنى الحاج قائلاً:

- ولكن فيم الانتظار إلى يوم السوق؟ إن الثور الذى يباع فى السوق يمكن أن يباع لحمًا فى البيت. فأنت تقدر على بيع لحمه أقة أقة، ورطلا رطلا، ثم تربح من بيعه ما كان يربحه التاجر. فوقعت هذه الفكرة كأنها الصدمة على أم رأسى.

أثورى يباع لحمًا؟ أيدبح هذا الثور فى بيتى وأرى الدم يجرى من عنقه؟ أأراه على الأرض يتخبط ويفحصها بحوافره؟ لقد بقى عندى تلك السنين كلها يدور بساقيتى ويشقى، ليطربنى بنعيرها فى ليالى القمر الساكنة. وأنا لا أقوى على أن أرى فرخة تذبح وكنت دائماً أتعمد أن أنام يوم عيد الأضحى حتى تذبح شاة الضحية وتسليخ وتجهز للأكل. فكيف أقوى على أن أرى هذا الهيكل الضخم يخرب كما يخرب الجبل وينحر أمام عيني؟

لقد كان خادماً مخلصاً وصديقاً قوياً؛ ولو رأيت أحداً يريد أن يؤذيه لوقفت أدافع عنه إذا لم يدافع هو عن نفسه بقرنيه. فقلت للرجل فى حزم: لا. لا. هذا لا يكون.

فقال الحاج فى إصرار:

- إذا كنت لا تحب أن يتدخل الجزار فى الأمر فإنى أقدر أن أذبح وأن أسلخ. وليس عليك إلا أن تأخذ اللحم وتبيعه. أين هذا الثور؟

قال هذا ثم ذهب مسرعاً إلى مربوط الثور فى جوار الساقية، فنظرت إلى صديقتى أستوحيه ماذا أفعل، ولكن صديقتى نظر إلى متعجباً وقال:

- أهكذا يكون الاقتراض؟

فقممت حائراً لألحق بالرجل، ولكن رجلى ما كادتأ تحملانى، وسار أبو النور إلى جانبى وقد أوقعت المفاجأة الحيرة فى قلبينا. فلما بلغنا مربوط الثور رأينا عجباً. ولست أدرى كيف استطاع الرجل فى مثل هذه اللحظات أن يتم كل هذا. كان الثور يتخبط على الأرض فى دمه. فغطيت وجهى بيدي وخرجت مسرعاً ولم تسعفنى الدموع، فوقفت جامداً. وجاء أبو النور فوقف إلى جانبى.

ولما سكن الثور المسكين صاح الحاج فى وقاحة:

- ابحث لى عن سكين صغيرة لأسلخ بها.

فلم أتحرك ولم يتحرك أبو النور وصاح الرجل مرة أخرى:

– هات السكين قبل أن يبرد الثور ويفسد الجلد.
فسمعت القول وخفت أن يبرد الثور. وأسرعت إلى البيت فأتيت
له بسكين فألقيتها إليه من وراء الباب، ووقفت مع صاحبي مطرقةً
حزيناً.

واقترب أبو النور منى فوضع يده على كتفى وقال مواسياً:
– لا فائدة من هذا الوجوم. سأذهب إلى المدينة لأعلم الناس
بلحم ثورك ليشتروا.

وبعد ساعة كان الحاج قد انتهى من سلخه وتقطيعه، وجاء
أبو النور مع جماعة من أهل ماهوش، وسمعته يحدثهم ويراجعون.
وفهمت من حديثهم أنهم يخشون أن يكون الثور قد نحر لأنه كان
مطعوناً أو مسلولاً.

وحلف لهم أبو النور أنه كان سليماً وأنه قد ذبح ليقترض الحاج
جمال الدين من ثمن لحمه. ولكن الناس لم يصدقوه. وقال أحدهم:
– ومن يدرينا أن ذلك الحاج قد قرأ اسم الله عليه؟
وأضاف آخر:

– وكيف نعرف إذا كانت السكين حادة كما ينبغي؟
وقال ثالث:

– إنها جرة ونصف جرة. هكذا ينبغي أن يكون الذبح الشرعي
أيعرف هذا الرجل كيف يذبح؟
وقال صوت من أقصى الجمع:

- ما علم ذلك الحاج بالذبح؟ ألا يكون قد خنقه؟
 فسمع الحاج ذلك القول وصاح غاضباً:
 - ما أطول ألسنتكم أيها القوم. أجنثتم لشراء لحم أم جنثتم لإقامة
 الحساب؟ انظروا إلى اللحم إن كانت لكم عيون.
 فغضب القوم وصاح بعضهم:
 - ما جنثنا إلى هنا لنسمع هذا التقرير.
 وصاح آخرون:
 - إن النقود فى جيوبنا.
 ثم انصرفوا واحداً بعد واحد ولم ينفع إرجاعهم توسل صديقى
 أبى النور.
 ونظرت إليهم وهم يبعدون وقلبى يكاد ينفجر. فماذا أصنع
 بهذا اللحم كله؟ ومن لى بمن يحمله وهو كالتل العظيم؟ وهل كنت
 لأتركه حيث هو لينتن ويتعفن؟ فما رأيت الناس يبلغون جانب
 السور حتى صحت بهم:
 - هلموا أيها الإخوان عودوا كراماً. تعالوا فخذوا اللحم ولا أريد
 له ثمناً.
 فترددوا فى السير قليلاً ثم وقفوا ينظر بعضهم إلى بعض لحظة،
 ثم انقلب تيارهم عائداً، وأسرعوا حتى بلغوا مصرع الثور وهم
 يركضون. وجعل كل منهم يحمل ما يستطيع حمله حتى تخطفوا
 اللحم فلم يبق منه إلا فخذ واحدة كان الحاج واقفاً إلى جوارها
 يمنعها. ونظر الحاج إلى فى غضب قائلاً:

- أهكذا لا تبيع شيئاً؟ أهكذا تضيع على الدراهم ويذهب كل جهدى سدى؟ ثم أخذ الفخذ فحملها على كتفه اليسرى، وجر جلد الثور بيمنائه ووضع سكيناً تحت إبطه والأخرى فى فمه، ثم مضى خارجاً.

فسار أبو النور وراءه ونزع جلد الثور منه وقال فى حلق:

- جحا أولى بجلد ثوره.

فنظر الحاج إليه فى غيظ، ثم ترك الجلد وأخذ السكين من فمه، ومضى يهز بها يمينه.

فصحت به متوسلاً فى غيظ:

- دع السكين فإنها لامرأتى.

فرماها إلى الأرض، ومضى بغير أن يلتفت نحوى، حتى خرج وهو يدمدم ويبرطم.

ونظر أبو النور إلى وهو يرفع جلد الثور وقال بصوت مختنق:

- صديقى...

فنظرت إليه وقلت فى حزن:

- أبا النور...

وسرت وهو إلى جانبى يجرد الجلد، حتى بلغنا مربط الثور، فوجدنا به فوضى تشبه آثار موقعة فى حرب ضروس. وجدنا رأس الثور المسكين والأكارع والفرث والمصران وكومة من الأوساخ، جعلت الهواء عفناً يكاد يخنق الأنفاس. فرمى صديقى الجلد إلى

ناحية، وأخذ يرفع الحطام ويكنس الأقدار. وأسرعت أساعده حتى مضت ساعة، وكلت منا الأيدي، وتألّمت فقرات الظهر من الانحناء. فرفعت رأسي لأستريح، ورفع صديقي رأسه كذلك، وتقابلت نظراتنا، ووقفنا حينًا ينظر كل منا في وجه صاحبه صامتًا. ثم انفجرت بيننا ضحكة في وقت واحد، في لحظة واحدة كأنها ضحكة شخص واحد. وامتدت الضحكة وطالت حتى كدنا نقع على الأرض من الإعياء، وجعل كل منا يضرب بيده على ركبته. لقد كانت فكاهة عظيمة.



ما أشد ضيقى بالحياة فى ماهوش وطنى ! فإنى لم أجد حولى فيه إلا جشعًا وظلمًا. ولكنى أرحم هؤلاء الذين يظلموننى فإنهم جديرون بالثراء. وأى قيمة للحياة إذا هى خلت من الكرم والإيثار والمحبة والصدق؟ إن الذين يفقدون هذه الخلال لا تبقى لهم فى الحياة فضلة تستحق الحياة. ولكنى مع هذا قد كدت أضيق بالحياة فى ماهوش. وحاولت أن أعتزل الناس قانعًا بالصورة التى أسمو معها إلى السماء فى خيالى، فكنت كل يوم أخرج إلى الحقول حتى أصل إلى شجرة الجميز، فأصعد فوقها وأختبئ بين فروعها حتى لا يرانى الناس وأنجو من فضولهم. فكنت أقضى هناك الأيام أو الليالى خاليًا إلى نفسى، أطلع على الناس بغير أن يرونى، وأخلو هناك إلى طيف علية ابنة علاء الدين فأناجيه وأحدثه بالمعانى التى لا أجد فى الأحياء من يفهمها. ولكنى بعد حين ضقت بمجلسى فوق الشجرة لأنه ملأ صدرى بعيوب غيرى. إذ كنت أرى الناس يمرون تحتى وهم لا يفطنون إلى وجودى، فيظهرون ما يبالبون فى إخفائه عن العيون ولا يتخرجون من كشف خلجات الضمائر. وقد خرجت من كل ما رأيته وأنا فوق الشجرة على حقيقة واحدة، هى أن الإنسان جدير بالثراء، وليس فى ذنوب الناس ما يستحق العقاب.

لقد بدا لى وأنا فوق الشجرة أن الله خالق هذه الأكوان العظيمة لن يضيق بالعفو ولن يكبر على رحمته ذنب، فلما لم يجدنى اعتزالى فوق الشجرة، حاولت الاعتزال فى الفلوات فكنت أخرج إلى تلال ماهوش وأشرف منها على واديهها، فأراه خطأ أغبر ضئيلاً تحت قدمى، ويخيل إلى أن الأنفاس تضيق فيه من الضباب الذى يجثم عليه. فإذا وقفت حيناً أنظر إلى ماهوش من فوق التلال لاحت لى صغيرة تافهة، بكل ما فيها من نضال وضجيج. ولكنى مع ذلك كنت أعود إليها وأحس أننى لا أستطيع الاستغناء عنها. فإذا حاولت أن أجد لى موضعاً فيها لم أعد إلا بالخيبة، فأرتد إلى عزلتى وتأملى. ولو كنت فى غنى عن الطعام والملبس، أو لو كان أهلى وولدى فى غنى عما يحتاج إليه أمثالهم، لما برح بى الضيق من حياتى فى ماهوش وطنى، ولكنى بشر كسائر الناس وأهلى وولدى لا غنى لهم عن أن يصيبوا من الحياة نصيباً. فكيف أجد ذلك النصيب وقد بحثت عنه فى كل أركان ماهوش فلم أجد لى فيها مكاناً.

ولقد أبى لى حيائى أن أشكو إلى الناس، فلست أحب أن أحمل أحداً ثقل همى. ولولا كلمة أقولها لصديقى أبى النور لأنفس بها عن صدرى لزاد الأمر على طاقتى. وقد أشار ذلك الصديق على أن أذهب إلى القاضى وهو صديق كان لأبى، لعلنى إذا شكوت إليه حالى ساعدنى على أن أجد عملاً ألتمس منه القوت لنفسى وأهلى. فترددت طويلاً ولكن الحاجة كانت تدفعنى. وغرتنى من القاضى كلمات كان

يقولها لى إذا لقينى ، فذهبت إليه على استحياء وسألته مساعدتى .
ولكنه نظر إلى نظرة فيها دهش وعجب ، ولم يجبنى بحرف على
مقالى . وتشاغل عنى ببعض أمره حيناً ، ثم التفت إلى وقال : «إن
الأرزاق موفورة لمن أقبل على التماسها» ثم أضاف سائلاً :

– لم لا تشغل بالتجارة يا جحا؟

ولو كان عندى مال لما انتظرت حتى يقترح على السيد القاضى .
فإنى لا أملك من الدنيا ما أعيش به يوماً بعد يوم . ولو كان عندى
رأس المال لما احتجت إلى أن أكون تاجرًا . فسكت حيناً وأنا مطرق ،
فأعاد القاضى سؤاله كأنه يريد ألا أنصرف عنه حتى يفتح لى متجرًا .
يا للنفاق والرياء ! لقد كان فى يده أن يجعلنى محتسباً أو مأذوناً ،
ولو كان جاداً فى عنايته بأمرى لما رد على سؤالى بسؤال ، ولما
حملنى مؤونة الاعتذار . فلما لم أجد عند القاضى جواباً لم أجد
حاجة إلى أن أجيب عن سؤاله . وانطلقت منى آهة ثم أعقبتها كلمة
«يا الله» ، ثم مضيت عنه .

فقام مسرعاً يشدد فى أثرى ، حتى أدركنى ودس فى يدى أربعين
درهماً وقال لى :

– أحب أن تبدأ تجارتك ، فاشتر لى بهذه عشرين وزه طعام
ضيوفى . ولم أكن عند ذلك فارغ البال ، فأناقشه أو أجادله ،
فوضعت الدراهم فى جيبى ثم مضيت عنه صامتاً . وجعلت أعيد
سؤاله على نفسى :

– لم لا تشتغل بالتجارة يا جحا؟

ولقد كانت التجارة مهنة الكرام، وكان من أجدادي من اشتغلوا بالتجارة. وكان النبی علیه الصلاة والسلام تاجرًا، وكان أبو بكر وعثمان تاجرین فلم لا أكون مثلهم تاجرًا.

ولكن التجارة تحتاج إلى المال، ولست أدرى أيقض الله لى كنزًا أم يجعل لى فى طريقى لقى من ذهب أو جوهر؟ والتجارة فوق هذا تحتاج إلى ولوج الأسواق ومعاملة السوق، فهل أستطيع أن أكون تاجرًا؟

ولكنى عدت إلى نفسى قائلاً:

– مالى أضعف عن الحياة، وإذا عدت منها بالخيبة التمسست

الأعذار لنفسى؟

وعزمت على أن أخوض زحمة الناس وأن أضرب فى الحياة كما يضربون. فما عدت إلى منزلى حتى كنت قد استقر عزمى. ونظرت حولى وجعلت أقلب وجوه الرأى وألتمس الحيلة فى تحصيل رأس المال، حتى عزمت على بيع دارى ليكون ثمنها رأس مالى.

وهكذا بعث البيت القديم الذى خلفه لى الأجداد، والذى يحمل فى كل ركن من أركانه ألوفاً من الذكريات. وكان بيع ذلك البيت صدمة كادت نفسى تتصدع منها. فوقفت عند كل جذع فى الحديقة الجرداء، ووقفت عند الساقية المتهدمة التى لا تخرج الماء، وذكرت ثورى المسكين الذى ودّره جارى جمال الدين سامحه الله.

وسرت حوله أذرف الدموع الغزار أسفًا وحرزًا، فوقفت عند كل لبنة من لبنات السور المتهمم الذى لا يبلغ علوه ذراعًا، وجعلت أناجى حيطانه، وأندب لها اضطرارى لفراقها، ولم يفارقنى الشعور بأننى أنا الذى جعل الدهر من محفته أن يبيع هذا التراث العزيز.

ثم جمعت كل متاعى وانتقلت إلى دار أخرى فى زقاق ضيق ونزلت إلى ميدان العمل كما ينزل الناس فى التماس الأرزاق.

وكانت كلمات القاضى ترن فى أذنى كل صباح، إذ قال لى يوم لقيته «إن الأرزاق موفورة لمن أقبل على التماسها».

وذهبت إلى السوق لأنظر فى السلع وأختار من بينها ما يصلح لأن أتخذه متجرًا. وبعد تفكير وتردد اخترت أن أتجر فى الطنافس، فهى نظيفة لا يأنف الحس منها، وهى جميلة يرتاح الذوق إليها، ولا يتعفف عنها أصحاب المروءة، ولا يشتريها إلا العظماء.

ولما استقر رأى على هذه النية ذهبت إلى متجر عظيم لأشتري منها، فرأيت به مجموعة من تلك التحف الثمينة التى لا تصنع إلا فى مدينة تبريز. فراعنى جمالها وعللت نفسى بالكسب الهين والثروة الطائلة. ووقفت أتأملها وكانت عينى لم تقع على مثلها فى البهاء. كانت نقوشها كأنها خلست من زهر ربيع وكانت ألوانها كأنها استمدت من أشعة الأصيل على أردان السحاب.

فوقفت حيالها مأذوخًا لا أقدر أن أرد عينى عنها، وأجلت ناظرى فى محاسنها فتأملت فيها زهرة بعد زهرة، وقوسًا بعد

قوس. وضرب بى الخيال إلى بلاد إيران وخيل إلى أننى أرى
أنامل الفتيات وهن يعقدن عقدها، وكلما أتممن منها ورقة من
زهرة، أو قضيباً من غصن، امتلأت قلوبهن إعجاباً وزهواً، وفاضت
نفوسهن تيهاً وعجباً. وتصورتهم يقفن دون الأنوال يتأملنها عن
بعد ويملن رؤوسهن يمنة ويسرة، لكى يتملين بحسنها. تصورت
هاتيك الفتيات وهن عاكفات على الطنافس يعقدن فيها العقدة بعد
الأخرى، يتهافن بالضحكات ويتشاورن بالهمسات ويتحدثن عن
أحلامهن بنفوس جائشات. ثم تصورت إحداهن وقد بدا لها من
وراء النافذة شخص، فتركت العقدة وأسرعت إلى النافذة، تنظر من
وراء «الشباك»، فتدس عينها فى فرجاته الضيقة بين مخروطاتها
الدقيقة لكى تتزود من حبيبها بنظرة تظل لقلبها فى الليل زاداً
حتى يطلع الصباح. فإذا ما مر الشخص عادت الفتاة إلى الطنفسة
تعقد فيها العقدة بعد الأخرى، بأنامل مضطربة، ولكن تلك الأنامل
كانت تصور الزهرة الساحرة التى كنت أراها أمام عيني، رائعة
الألوان حلوة المنظر منسجمة الأشكال. كنت أتصور هذا وأنا واقف
أنظر إلى الطنافس، وقلت لنفسى ما هذه إلا خطرات نفوس وأشجان
قلوب، وما يغلو على مثلها ثمن وإن غلا.

ونذهبت إلى التاجر لأساومه فى شرائها، فوجدته حريصاً
عليها، ولا عجب فهى جديدة أن يحرص عليها كل من يعرف
لها قدرها. فزدته فى ثمنها ولم أتردد فى أن أبذل له ما يطمعه

فى ببيعها. وبعد لآى سمح التاجر فففعها إلى؁ ووزنت له ثمنها
ثلثمائة دينار كاملة. وحملتها وسرت بها وأنا أكاد أطير فرحًا؁ فقد
خيل إلى أننى فزت من الرجل بصفقة الخبير ذى القلب البصير.

ولكن ماذا وجدت من الناس؟ ذهبت أعرض الطنافس على
خيار القوم؁ فعرضتها على القاضى فلم يكن فى حاجة إليها؁
وعلى المحتسب فقال إنه اشترى بالأمس منها؁ وهكذا لم أجد
فى كل من عرضتها عليهم رجلا يستطيع أن يدرك أسرار جمالها.
ثم عرضتها على الناس فى الأسواق فكانوا يقومون إليها يقيسونها
بالذراع؁ ويحسبوننها بالأيدى ويزنوننها بالميزان؁ كأنما هى سلة
مبتذلة؁ وليست من حرارة الأرواح ونشوة الأمانى. وكانوا مع ذلك
إذا اشتروها لم يعرضوا إلا البخس من الأثمان. وهكذا خرجت من
تجارة الطنافس بخسارة نصف مالى. ولكنى لم أجزع ولم أضعف؁
وعزمت على أن أختار تجارة أخرى تكون فى سلة مما يحتاج
الناس إليه ولا يمكنهم أن يستغنوا عنه؁ فإن العظماء قليلون؁ وقد
فسد الزمان وضاعت بين الناس قيم الفنون. وأما عامة الناس فلا
يحصيهم العد والبيع والشراء فيهم لا يحده حد.

وبعد تفكير واجتهاد عزمت على أن أتعرج فى الأغنام. فليس فيها
قطعة واحدة لا يحتاج الناس إليها. فشعرها صوف وجلدها نعال
ولحمها طعام وفروتها حلية؁ وهى بعد ذلك كله جميلة المنظر
حلوة الطباع. ولقد كنت دائمًا أحبها وأطعم ما أقتنيه منها بيدي؁

وأداعبه كما أداعب ولدى. ولقد أبدع الله خلقها فما ترى فيها من عيب، سبحان من جلت قدرته وعظمت حكمته وبدعت صنعته. ولكن كل هذا لم يجعل تجارة الأغنام رابحة. فقد كنت أشتريها وأنا راض بثمانها. كنت أعطى الدنانير المعدنية ثمنًا لخلقة حية. كنت أعطى صاحب الشاة حجرًا أصم، وآخذ منه حياة بديعة الخلق. ولكن الناس إذا أتوا لشرائها منى لم ينظروا إليها بعينى. فكانوا يدفعونها فى غلظة ويجسونها فى شراهة. كان لعابهم يسيل وهم يقبلونها بأيديهم كأنهم سباع تتأمل الفريسة. فإذا اشتروها لم يشتروها إلا بعد مماكسة ومراجعة ومساومة فيها لجاجة وجشع. وهكذا لم أخرج من تجارة الأغنام إلا بخسارة نصف ما بقى من مالى.

هكذا استمر بى الحال وأنا أتنقل من تجارة إلى تجارة، ومن سلعة إلى سلعة، وكل منها يقطع نصف ما بقى عندى، حتى لم يبق لى إلا دراهم معدودة، فلم أجد شيئاً أشتريه إلا بيض الدجاج. وفى الحق أن البيض سلعة نظيفة جميلة الصورة بيضاء اللون لها هندسة عجيبة فى شكلها، ورونق رائع فى جملتها. ليس فى الأشياء ما يدخل الفرخ على القلب مثل البيضة إذا وجدتها فى ركن بيت الدجاج، كأنها عند ذلك كنز من الجواهر.

ولكن البيض لم يكن خيرًا من كل ما سبقه. فقد كنت أشتري التسع منها بدرهم - بدرهم واحد. وكانت كل بيضة منها عندى

أثمن من كل ما عندى من الدراهم، ولكن الناس كانوا إذا أتوا للشراء، لم يدركوا ما فى البيض من جلال الخلقة وجمال الصورة وإبداع الهندسة، بل ينظرون إليه فى الضوء وينقدونه نقد الصيرفى للدينار، كأنه شىء لا تتجلى فيه قدرة الخالق المبدع الذى برأ الأكوان. فكان الأمر ينتهى بى دائماً إلى أن أبيع العشرة منه بالدرهم الواحد، حتى ابتلع السوق كل ما بقى من دراهمى. وأنا اليوم أتلفت حولى فلا أجد إلا يداً فارغة، بيتاً خاوياً، ولا أزال أنتظر الفرج ولا يزال عنى متباعدًا.

أى رب، هذا أنا ضربت فى الأسواق ولم أعص مشورة القاضى. لم أقعد ولم أتخاذل. ولكنى هذا عبدك لا أملك مالا ولا أجد رزقاً كأنما كنت فى غيبة عند توزيع الأقسام. أستغفرك يا من وسع عفوك الآثام. لقد كاد الشك يداخلى، فلأعد إلى صورة الحبيبة التى أسمو معها إلى السماء لعلى أكفر هناك عن خطئى فى التسبيح العلوى والقرتيل.



ماذا أصنع لكى أعيش فى ماهوش؟ لقد زعم القاضى حرسه الله أن الأرزاق موفورة لمن أقبل على التماسها. ولكنى سعى وسعى وسعى ولم أجد لى نصيباً.

ذهبت اليوم مرة أخرى إلى الشيخ عماد الدين الفقيه لأحاول أن أذكره بدينى عليه. ولكنى علمت أنه عند القاضى. فقلت هذه فرصة، وذهبت إليه فى حضرة القاضى أعزه الله، فوجدته على عهده لا يزال يهز لحيته، والناس يقبلون يده التماساً للبركة، فدخلت وسلمت وخطر لى أن أذهب إليه وأقبل يده مع الناس، لعله يذكر دينى عليه. ولكنى ما كدت أقف أمامه وأراه يصرف وجهه عنى حتى وجدت نفسى أقول له:

— ألا تعرفنى يا سيدى الشيخ؟

فنظر إلى وجعل يحرك شفقيه كأنه مشغول بالقراءة. ثم حرك لحيته حركة لم أفهم معناها. ولكن القاضى نادانى وجعل يحدثنى ويسألنى عن أحوالى. وسألنى كذلك عن الوزات التى طلب منى أن أبتاعها له منذ أشهر، فذكرت عند ذلك أننى مدين له بثمن تلك الوزات، وعلانى خجل شديد. وهكذا ذهبت أطلب دينى فوجدت نفسى مدينًا مطالبًا.

وملت على القاضى فأسررت إليه أننى قد جئت أطلب ديناً لى
على صاحبه الفقيه. فهمس فى أذنى :

— ما ينبغى لك أن تطالبه فى دارى.

فخرجت مرتبكاً بعد أن سلمت ، ولمحت الشيخ الفقيه يشيعنى
بلمعة شماتة من عينيه وهزة سخرية من لحيته.

وسرت أفكر ماذا عسائ أن أصنع فى ماهوش لكى أجد فيها
رزقى. لكأنى بذلك الرزق كامن فى قلب صخرة من دونها بحر من
دونه صحراء قاطعة. أو كأنه فى كهف مغلق عليه باب من حديد
ليس فيه إلا ثقب إبرة أحاول أن أنظر إليه من خلالها. على حين
أرى ماهوش سخية ليس بها بخل غنية ليس بها فقر مسرفة ليس
فيها اقتصاد.

هنا فى ماهوش راقصة ليس عليها إلا أن تحرك خصرها فتنهال
عليها الدنانير من كل صوب ، وهناك مغنية لو طلبت على أغانيها
نصف ثروة ماهوش لسخا أهلها بالنصف الآخر طرباً. ألا أستطيع
أن أجد لنفسى سلعة نافقة فى ماهوش؟ لو كان خصرى نحيلاً ليناً
لاستطعت الرقص ، ولو كان غنائى مطرباً لعرضت على قومى الغناء.
ولكن ما حيلتى إذا كان خصرى غليظاً جامداً ، وكان صوتى لا يطرب
أحدًا. لقد دخلت الحمام يوماً فخطر لى أن أجرب صوتى فى أغنية
لعلى أجيدها فأنال منها خيراً. وأنا أعرف أن أهل ماهوش يحبون
الغناء ويطربون له ، فهم يتغنون فى كل وقت وكل مكان. هم إذا

حزنوا غنوا وإذا فرحوا غنوا وإذا باعوا أو اشتروا غنوا. كل من أراد أن يعرض سلعة جعل عرضها غناء، وكل من أراد نداء جعل نداءه غناء. وسمعت صوتي في الحمام فوجدته مطرباً، فذب الأمل في قلبي وقلت هذه سلعة نافقة. وخرجت إلى الطريق وأنا أغنى، فاجتمع على الناس وجعلوا يضحكون مني. فدعوتهم أن يعودوا معي إلى الحمام لعل صوتي فيه يطربهم، ولكنهم زادوا ضحكاً ولم أصب منهم درهماً. فما حيلتي إذا كان أهل ماهوش لا يرضيهم شيء مني؟

ولما بلغت الدار جلست مهموماً حتى جاء صاحبي أبو النور، وما كاد يسلم على حتى سألتني:
- أين كنت اليوم يا صديقي؟

فقصصت عليه ما كان مني. يا له من صديق نبيل! لقد رأيته يمسح دمعة في عينه، ولا أدري أكان ذلك إشفاقاً على أم كان كما قال لوجع في عينه. ولما فرغت من قصتي قال لي:
- إن عندي سرباً من الوز لا أجد حاجة إليه، فخذ منه عشرين وزاً فاحملها إلى القاضي.

فقلت له:

ولكنك تستطيع بيعها.

فقال في شيء من العتب.

- لست أبيع وزى في الأسواق يا صديقي. وهي تكلفني في إطعامها ما لا طاقة لي به. فإذا أخذت منها ما تريد أحسنت إلي.

وهكذا صرت عنده متفضلاً بأن آخذ من وزاته ما أرد به ديني إلى القاضي. ولم يرض أن يتركني حتى أخذت عشرين وزه سمينة، نسوقها إلى بيت القاضي.

وسرت في الطريق أفكر في تلك الحكم التي نطق بها القاضي إذ قال لي إن الرزق مكفول لمن التمسه. وأردت أن أداعبه مداعبة خفيفة تطلعه على شيء مما دار في قلبي. فلما بلغت داره أخذت وزه سمينة وجعلتها وراء الباب، وسقت تسع عشرة وزه إلى فناء الدار. وكان القاضي هناك في مجلسه بعد أن فرغ من صلاة العصر. فلما رآني مقبلاً قام يستقبلني قائلاً:

— ما أعظمه من وز سمين! إنك لتحسن الشراء يا جحا، ولن أشتري الوز بعد هذا إلا من عندك.

ثم أقبل على الوز يعده واحدة بعد واحدة، فلما وجدها تسع عشرة قال ممتعاً:

— ولكنها تنقص واحدة. وما كنت لأقبل إلا عشرين كاملة. هكذا كان شرائي وهكذا كان شرطي. لست أحب أن تنقصني وزه وقد أخذت ثمنها.

فغاضني قوله غيظاً شديداً فإنه لم يعطيني إلا أربعين درهماً والوزه من هذه السمان لا تساوي أقل من أربعة دراهم. ولكنني كظمت غيظي وقلت له:

أما تعرف العدد يا سيدي القاضي؟

فعدّها مرة ثانية ثمّ ثالثة وقال فى حنق :

– قلت لك إنها تسع عشرة.

فقلت له فى عناد :

– بل هى عشرون. تكفى عشرين من رجالك.

فقال لى : أما تعدّها؟

فقلت : إن الوز يتحرك ويدخل بعضه فى بعض فكيف أعدّه؟

فغضب من مراجعتى ودعا أعوانه فوقفوا حوله حلقة غاضبة.

وكان كلا منهم ينتظر أمره أن يبطحنى على الأرض ليجلدنى جزاء مراجعتى.

فقال لى القاضى :

– عد عشرين من هؤلاء يا جحا.

فعددت عشرين وقفوا صفّاً واحداً ينتظرون أمر القاضى.

فصاح بهم السيد :

– ليذهب كل منكم ليأخذ فى يده وزّة.

فحملوا على الوز فأخذ كل منهم واحدة تحت إبطه إلا واحداً

منهم وقف فارغ اليد ينظر نحوى حائقاً.

فقال القاضى وعلى وجهه بسمّة الفوز :

– ألا ترى أنها تسع عشرة وزّة؟ ألا ترى هذا الرجل الذى

لم يجد نصيباً؟

فتذكرت ما قاله لى من قبل إذ قال إن الأرزاق موفورة لكل من أقبل على التماسها، فضحكت ضحكة عالية حتى رأيت وجه القاضى يحمر خجلاً. وقال ممتعاً: ماذا يضحكك من قولى؟ فقلت:

– إن الذنب ذنب هذا الذى لم يجد لنفسه نصيباً، فقد كانت الوزات أمامه إذا أقبل على التماسها.

فضحك القاضى ضحكاً شديداً ولست أدري إذا كان قد فهم مقصدى، ولكنه دعانى فوضع ذراعه فى ذراعى وذهب بى إلى مجلسه وقضينا معاً ساعة يسألنى عن أحوالى، وأقص عليه ما كان منى منذ سمعت نصيحته، فبعت دارى واشتغلت تاجراً حتى أكلت ثمنه تجارتي. وكان يضحك من حديثى كأننى كنت ألقى عليه فكاهة مع أن قلبى كان يدمى.

ولما سلمت عليه لأنصرف قال لى:

– لا بأس عليك يا جحا، فإنك على كل حال تحسن تجارة الوز، فهات لى عشرين وزاة أخرى، ثم أخرج لى أربعين درهماً. فنظرت إليه وهو يمد يده نحوى ثم غلبنى الضحك فضحكت وضحكت حتى كدت أقع متهاكاً، وتركته ماداً يده نحوى وانصرفت عنه ضاحكاً.

فلما بلغت باب داره أخذت الوزاة التى تركتها هناك فحملتها إلى بيتى تحت إبطى فأبنائى أولى بها من ذلك القاضى.

مضت أيام لم أر فيها صديقى أبا النور، وضاق صدرى من الوحشة إليه، فإنه لم يبق فى الحياة من سلوى إلا أن أجلس معه وأفضى إليه بأحزان قلبى.

وقد زادنى فى هذه الأيام حزناً ما لقيته من حمق ريمة وسوء عشرتها. فهى لا تجعل يوماً يمر بى بغير أن تزيدنى وسواساً وهمّاً، حتى تخيل إلى أن الفضاء أضيق فى وجهى من حجرة فى بيتى. أف لحجرات بيتى! إن سقفها يكاد ينطبق على الأرض فلا أستطيع البقاء فيها وأخرج منها لا ألوى على شىء، وألتمس الهواء الطلق فى أطراف ماهوش، فتطاردنى أشباح البؤس تصيح من ورائى بصوت ريمة زوجتى.

فكنت كلما وجدت جنازة سرت وراء النعش لأشيعها إلى القبور، وأبقى حتى يدفن الميت وتقرأ عند جدثه الصلوات، ويوجه إلى أهله العزاء، فأود لو طال بقائى عند القبر فإنى أجد عنده ارتياحاً. وقد سار ولدى عجيب معى يوماً مع إحدى هذه الجنائز، فلما دفن الميت قام بعض أصحابه يؤبنونه فقال أحدهم فى رثائه:

«أنت هذا نحملك إلى مقرك الموحش، الذى لا ترى فيه شمساً ولا قمرًا، ولا يطالعك فيه نجم ولا يهب عليك نسيم. أنت هذا فى مقرك المظلم لا تنفذ إليك الأضواء ولا تؤنسك سجعات الأطيّار».

وجعل ذلك الرجل يفيض فى وصف القبر ووحشته، وظلمته
وضيقه، حتى انهلت العبرات من المعزين وشهقوا جميعاً بالبكاء.
وعند ذلك شعرت بوخزة فى جنبى، فإذا ولدى يلكنى بكوعه
ويشير إلى أن أدنو منه بأذنى. وقال لى هامساً:

– أقرأت قصيدتى التى وصفت بها بيتنا الجديد؟

وكان قد أطلعنى على قصيدة يصف فيها ذلك البيت، فكأنه
قد أملاها على ذلك الرجل الذى وقف يؤبّن الميت ويصف قبره
ووحشته وظلمته.

فثارت نفسى عند ذلك، وتذكرت كل بؤسى، وقمت بغير أن
أستأذن أو أعزى، وهمت على وجهى بين القبور وولدى يسير صامتاً
فى أثرى، حتى بلغت المدينة ولم ألتفت ورائى.

وكننت فى سبرى هاماً فى أحزانى، أشعر بالخزى مما جررته
على أهلى وولدى من الشقاء. إن ماهوش قد أنكرتنى ولم تجعل لى
فى أرزاقها نصيباً ولا بين أهلها مكاناً، واضطرتنى إلى بيع دار
أجدادى، ولم تجعل لى فى بيوتها إلا ذلك القبر الذى نقيم فيه
أحياء. ولكن أين المذنب أنا أم ماهوش؟ أى وطنى العزيز أين الذى
يقع عليه ذنب حرمانى وطردي وإقتار رزقى أنا أم أنت؟ أتركنى
ماهوش أهلك أنا وأهلى؟ أيقال عن ماهوش فى مستقبل أيامها إن
جحا وأهله ماتوا بها جوعاً ودفنوا بها أحياء؟ ولما قربت من
دارى رأيت عن بعد صديقى أبا النور يطرق الباب وهو يحمل شيئاً

على ظهره وشيئاً في يده. ثم فتح له الباب فدخل. وأسرت حتى بلغت الدار فوجدته قد وضع حمله، وكان كيلة من القمح وقطعة من اللحم، وأخرج من جيبه رمانتين وجلس يمسح العرق عن جبينه. فلما رأيت ذلك كبر على نفسه. أيحمل أبو النور كل هذا إلى وهو رجل رقيق الحال لا يكاد يستطيع أن يعيش مستوراً؟ وتجرات فكلمته في هذا، وما كدت أخرج صوتي حتى خرجت على ريمة كأنها نمرة تنطلق من عرينها. وقالت بصوتها الجهورى:

- أكنت تريد أن نموت جوعاً؟ ألا فاعلم أيها الرجل أنه لولا هداياه في هذين الأسبوعين لهلكنا كلنا جوعاً.

ولم أدرك إلا عند ذلك حقيقة قولها. لقد مضى على أسبوعان حقاً لم أجد في جيبى درهماً ولم أعط امرأتى دانقاً. فكيف كنا نأكل ومم كنا ننفق؟

ولا أستطيع أن أبين مقدار ألمي عندما تبينت هذه الحقيقة الطاحنة. لقد انحدرت وهويت وصرت حملاً على صديقي.

وخرجت من الدار أسير كالأعمى والثورة تملأ جوانحي. لئن كانت ماهوش لا تفسح لى مكاناً فيها فإني لن أحمل صديقي وحده مؤونتي. إن لى حقاً على ماهوش فأنا جحاها. أنا الذى إذا ذكرت ماهوش قال عنها الناس إنها وطنى. أنا الذى يبعث الملوك إلى لى أسير إليهم فأبى. أنا الذى يطلبونه لى يسامرهم ويعلمهم - كما يقولون - الحكمة فيأبى إلا أن يعيش بين قومه الذين ينكرونه.

أنا الذى أتنفس فى حماقات ماهوش بضحكى وأهدد من سخافاتى
بعفوى وأستقبل السماء فى الصباح والمساء من أجلها بدعائى.
فلأخذن من ماهوش حقى وإن أثبت أن تبذل فى حقى.

ولما صرت بين الحقول تلفت حولى فلم أجد سوى بساتين فسيحة
تمتد إلى مدى البصر عن يمينى وشمالى، فيها من كل فاكهة ومن
كل بقلة. فعزمت على السرقة عمدًا. فليقل الناس ما يقولون فلست
أسميها سرقة. فأنا لا آخذ إلا رزقى. أنا جحا، وما ينبغى لها أن
تنسانى. وقفزت فوق السور وجعلت أقطف وأقطع وأخلع فى شىء
من الحنق. ولست أنكر أننى مع كل حنقى لم أخل من خوف أن
يرانى الناس فيقولوا إننى أسرق. ونزعت شملة كانت على فجعلت
فيها الفاكهة والبقل وجعلتها صرة كبيرة. ولما عزمت على حملها
شعرت بوخزة فى قلبى، ألسن سارقًا؟ ألم أدخل البستان خفية
أتلفت لا يرانى صاحبه؟ وفيما كنت أفكر مضطربًا مرتبكًا شعرت
بيد على كتفى وسمعت صاحب البستان يقول:

— ما هذا يا جحا؟

ففزعت ولكنى تماسكت وفكرت مليا وقلت فى نفسى إنها
عاصفة هوجاء. ألم تكن ثورة نفسى كالعاصفة؟

وأجبت الرجل بغير وعى: هى عاصفة هوجاء حملتنى فوق
السور قسرًا. فتضاحك الرجل خبثًا كأننى كنت أمازحه ثم قال:
— وأين تلك العاصفة؟ فالجو صاف والشمس تبسم فى وداعة.

فقلت فى مرارة: إنك لا تعرفها. إنها عاصفة لا يحسها أمثالك.
فضحك الرجل وكأنه ظن بى تخليطاً ثم قال:
- آمنا يا سيدى جحا. هى العاصفة قد حملتك، ولكن ما الذى
قلع هذا وقطع هذا وقطف ذاك؟ وجعل يشير إلى ما فى صرتى.
فقلت مبادراً:

- دفعتنى العاصفة فكلما تشبثت بشيء خرج فى يدى.
فضحك الرجل مرة أخرى. ثم قال:
- آمنا بهذا أيضاً. ولكن ما الذى وضع كل هذا فى شملتك؟
فلم أجد للرجل جواباً. فقلت فى صراحة:
- أما هذا فقد فاجأتنى قبل أن أفكر فيه.
فانفجر الرجل بالضحك انفجاراً عجيباً حتى كاد يقع على
الأرض، ثم أقبل نحوى فحمل الشملة بيديه وألقاها على كتفى قائلاً:
- بارك الله لك فيها يا جحا، وحاذر أن تطيرها العاصفة عن كاهلك.
ثم فتح لى باب البستان فخرجت منه مغتبطاً حزيناً.
ولما عدت إلى بيتى وجدت أبا النور ما زال جالساً فى انتظارى،
فحدثته بأمرى. وقد لمحت الدمع ينحدر فوق خديه وهو قائم
لينصرف عنى.

أى صديقى، ليس فى طاقة إنسان أن يفعل ما فعلت.
إنك تواسينى بصمتك ودمعك خيراً مما واسيتنى بقمحك ولحمك.
ولا أملك إلا أن أشكرك من قلب جريح.

لا تحمل الأنباء إلينا إلا كل منذر بكارثة. وهل عجب أن يرسل الله الكوارث على بلد مثل ماهوش؟

خرج تيمور بجيوشه فاجتاح أقصى ريفها وأدناه، وخرج علاء الدين من خوفه يهرب في البلاد طريداً ذليلاً. ويلاه! إن علاء الدين طريد بعد أن خرج من عاصمته وقصره. فأين أنت يا عليّة ابنة علاء الدين؟ لقد أنساني هم الحياة أن أدخلو إلى خيالك وأسمو معه إلى سماوات العلا. فأين أنت في مصاب ماهوش؟ أبكت عيناك حزناً؟ أعصر قلبك همّاً؟ وهل امتلأ صدرك فزعاً؟ أنظرت إليك العيون بغير ستر، وتشقت عنك الحراس والحجاب؟ ليتك لم تكونى سوى هذا الخيال الذى فى فؤادى فلا تصل إليك الأيدى ولا تدنو منك حوادث الدهر. لقد جنى عليك أنك فى ماهوش، فكان لك مصير أهل ماهوش. وكيف أقيم فى هذا البلد الذى لا مكان لى فيه إذا كان خلواً منك؟ لقد كنت لا أرضى بماهوش بديلاً وأنت فى ذرى قصرِكَ. فما مقامى بأرض ماهوش وقد كنت فيها أتنسم التنسيم من قبلك؟ لقد أبيت الخروج من ماهوش على ظلمها حتى لا أبعد عن ديار يسطع نورك عليها، وتنبعث أنفاس طهرِكَ فوقها. لقد أبيت أن أجيب دعوة ملوك البلاد إذ دعونى إلى قصورهم، وأصممت أذنى عن نداء العلماء

فى أقاصى الأرض إذ نشدونى أن أعقد حلقات الدرس فى مساجدهم. ولكن أبقى بعد فى ماهوش وقد نزحت عنها وليس لى مكان فيها؟ لقد دفعنى غيظى بالأمس إلى عمل ما زلت ألوم عليه نفسى. فما كدت أدخل إلى دارى بعد أن فارقتى أبو النور حتى عادت الثورة إلى قلبى. إن ماهوش تذلىنى وتقهرنى وتتجاهل وجودى. إن عيونها العشواء لا تعرف لى مكانى. وخطر لى أن أموت لو كان الموت فى يدى. ثم تصورت نفسى ميتاً فى نعش يحملنى الناس إلى القبر ويهيلون على التراب، ثم تصورت قومى بعد أن مت وأخلت مكانى بينهم فى ماهوش. ألا يهزهم فقدى؟ ألا يشعرون بالوحشة من فراقى؟ ألا يحسون الندم على إغفالى وإهمالى فى حياتى؟ واستقر عزمى آخر الأمر على أن أموت. فصلبت أطرافى وقلت «أيها الموت أقبل».

ولم يكن من الهين على أن أظهر الموت وأنا حى أتنفس، ولكن الناس لا يقلبون الميت ولا يجراءون على جس أعضاءه وتسمع ضربات قلبه.

فالموت رهيب وللميت حرمة تجعل الناس يهابون الاقتراب منه. فلما جاءت امرأتى إلى حجرتى ورأتنى ممدداً نادتنى ولم يخل نداؤها من سبابى. فلم أجب على صراخها ولم أحرك شعرة من جفنى. فجاءت الحمقاء حتى اقتربت منى ووخزت صدرى. فلما لم أتحرك ووجدتنى متصلباً صرخت وولولت وخرجت إلى الجيران

تتعانى. ثم ما لبثت أن عادت وقد رأيتها من بين جفنى تلبس
سواداً من قمة رأسها إلى أخمصها. وكانت تصيح قائلة «يا سبى !
يا سيدى وصاحبى !».

ولم يخل قلبى من الشماتة فيها لطول ما عذبتنى قبل موتى.
ولم أسمح لنفسى بأن أرق لها وأعود إلى الحياة، فبقيت متمدداً
متصلباً فى ستر ظلام حجرتى.

ثم كان ما كان وغسلت وجهزت ووضعت على الفراش، حتى يأتوا
بالنعش وكنت أسمع ما يدور حولى من الأحاديث، فعرفت كيف
استقبلت ماهوش نبأ موتى. ولم يبق فى ماهوش رجل ولا امرأة إلا
أسف علىّ وحزن لفقدى. وتحركت أريحية الناس فجمعوا من المال
وأنا ميت ما لو جمعوه لى من قبل لكفونى مؤونة الحياة، ولما بعث
دارى، ولعشت بينهم قرير العين لا أفكر فى موت. وسمعت البكاء
والعزاء، حتى امرأتى ريمة كادت تقع على الأرض من لطم خديها.
وكنت كلما أتت طائفة جديدة للعزاء كتمت أنفاسى حتى لا يغيب
عنى حرف مما يقولون. فخرجت من كل ما سمعت على أن أهل
ماهوش مجمعون على محبتى وإكرامى. وكانوا يتذاكرون فكاهاتى
ويحفظون من أقوالى ما لا أذكر أنه صدر عنى. فكانت تلك الساعات
التي قضيتها فى انتظار النعش أسعد أيام حياتى...

ثم جاء صديقى أبو النور، وكان غائباً يعد لى جهازى ويختار
موضع قبرى. وجاء يحمل أكفانى وحنوطى، ولم ينس أن يفرش

لحدى بالرمل والحناء ليكون أرفق بجثمانى. ولما دخل على جلس إلى جانبى، ولم أسمعه يتكلم أو يشهق ببكاء أو يتحدث برياء، ولكنى كنت أعرف أنه حزن لفراقى حزناً أعمق من الدمع والرتاء. وقد شعرت بيده تجسنى على حين فجأة، كأنه لم يؤمن بموتى. وكانت يده كلما اقتربت من وجهى أحسست رغبة شديدة فى أن أقبلها. ولمت نفسى على أننى خدعته كما خدعت الناس، وأدخلت على قلبه الحزن من أجلي، حتى كدت أهمس له بالحق، لولا أننى خفت من افتضاح أمرى.

ثم حملت بعد أن تم تجهيزى ووضعت فى النعش، وسار المشيعون من أمامى ومن خلفى، بعضهم ينشد الشعر وبعضهم يتلو القرآن، وبعضهم يحدث جاره فى شئون تجارته أو سيرة جيرانه. وكان للمشهد ضجيج عظيم ينبئ بما فيه من عدد عديد. وما زلت محمولا فى طرق ماهوش وأنا أعرف كل موضع حملت فيه، مما كان يصل إلى سمعى من أصوات الأسف يبعثها النساء والصبيان من بيوتهم. فهؤلاء جميعا أهل ماهوش الذين لم أجد وسيلة إلى العيش فيهم حتى اضطرت إلى أن أموت موتاً. وأخيراً بلغ المشهد إلى جانب النهر - نهر ماهوش - من ناحية الجسر الأعظم فحقق قلبى لذلك النهر الذى طالما حقق لمنظره وأنا حى. وكنت منذ يومين قد رأيته فاض وعلا حتى صارت أمواجه ترتطم بالشاطئ ويسمع عجيجها عن بعد ميل. وكانت العادة أن يخوض الناس فيه حتى

يبلغوا الجانب الآخر حيث جبانة المدينة. ولكن النهر لم يسبق له أن علا وفاض كما فعل منذ يومين.

وأحسست عند ذلك وأنا في نعشى تردداً واضطراباً في الذين يحملوننى كأنهم خافوا أن يخوضوا في الماء الثائر. وكان ذلك الجزء من النهر عميقاً، ولو خاضوا فيه لغرقوا وغرقت معهم. ولا أنكر أنني خشيت على نفسى أن يخطئ المشيعون خطأ لا يداوى. وكنت أعرف فى النهر موضعاً آخر لم يبلغ الماء فيه إلا علواً ضئيلاً إذ هناك صخرة كالجسر تعترض مجراه. فتجلدت وتمطيت وشددت نفسى من أربطة الكفن، وقمت برأسى حتى رفعت الغطاء الحريرى الذى فوق النعش. ولما أشرفت على المشيعين صحت فيهم قائلاً:

– من هناك من هناك، فالمخاضة عن يساركم.

وكانوا فى شغل ينظرون إلى النهر ويتحاورون كيف يجتازونه. فما كادوا يسمعون صوتى حتى ارتفعت منهم صيحة فزع وتفرقوا يلتمسون السبل كأنهم قطع من شياه طلع عليهم ذئب كاسر. ورمى الحمالون النعش فى عنف حتى أحسست عظامى تققع. فإذا بالمكان يخلو فلم يبق فيه إلا صديقى أبو النور وواحد من القراء كان لا يستطيع جرياً.

فأخذ أبو النور يفك عنى أكفانى بأنامل مضطربة من الفرح وهو يقول:

– لم يصدق قلبى أنك مت حقاً.

وبعد قليل سكنت صدمة الخوف عن الناس فعادوا نحوى ولهم
ضحيج وعجيج ، يقذفوننى بوابل من ألفاظ التقريع والتأنيب .
ولا عجب فى ذلك فقد رأوا أننى لم أزل حيًّا ، وعبارات المودة
لا تساق إلا إلى الأموات .

فقممت بينهم متستراً بأكفانى ، وحاولت أن أعتذر إليهم مما
سببت لهم من المتاعب ، وبالغت فى ذلك حتى خيل إلى أنهم
قد عفوا عني . ثم طلبت منهم أن يعطونى ما جمعه من المال من
أجلى ، وما أخذوه من الناس باسمى ، حتى لا أضطر أن أموت مرة
أخرى . فانهالوا على بالشتائم وسمونى محتالاً وضحكة وخائب
الرجاء . ثم انصرفوا عني .

فعدت نحو دارى أتوكأ على صديقى أبى النور وأجر أذيال أكفانى ،
وأنا أقطع نفسى أسفاً وغماً ، ولم أجن من وراء كل تدبيرى شيئاً .
وكان أبو النور أشد ألماً منى . فكانت الدموع تتساقط على ثوبه
كأنها سمط متصل ، والأنفاس تهز صدره هزاً عنيفاً بعد أن كان
هادئاً صامتاً . وقضى معى تلك الليلة حتى طلع الفجر ولم يفارقنى
لحظة . ذلك الصديق العزيز !

أما أنا فقد عزمت على أن أهاجر من ماهوش ، فلن أبقى فى بلد
لا أجد لى مكاناً فيه . حتى إن الموت نفسه لم يفسح لى بينهم
محلاً .

خرجت من وطنى ماهوش أسير كالأعمى ، والأفكار تحتوشنى من كل جانب والأنفاس تكاد تمزق صدرى. ونظرت حولى فرأيت ربوة ماهوش الخضراء تبسم للصبح ، إذ تلقى عليها الشمس أول شعاعها الذهبى. رأيت سماءها والسحب تزخرف أطرافها بنسيج سحرى من الفضة والذهب واللؤلؤ والياقوت. هذه السماء هى التى ملأت قلبى تسبيحاً وعلمتني من المعانى ما تعجز عنه كتب الفلاسفة ومباحث العلماء. وألقيت نظرى على نهر ماهوش إذ تنحدر إليه الجداول الصافية ، تتدفق من عيون رائقة باردة تنبع من قمة الربوة ثم تسير فى جداولها التى تلمع فى مجاريها الحصباء كأنها الدرر انفرطت من عقود الحسان. ورأيت بيوت ماهوش على سفح الربوة ، تتخللها البساتين بما فيها من نبت بين قصير وطويل ، وبين مورق ومجرد ، قد تداخلت ألوانها وتشابكت فروعها وتعانقت أغصانها واهتزت للنسيم الوديع.

هذه ماهوش لذة العين وبهجة القلب وشفاء الصدر ، أغادرها وأهاجر منها لأضرب فى الآفاق. فناديت من أعماق قلبى «يا نفس تجلدى ويا عين أغمضى ويا فؤاد التمس النسيان» ، ثم سرت فى الطريق أفكر فيما كان من شقائى فى وطنى الحبيب القاسى ، الذى لم أجد فيه لى مكاناً.

وفيما كنت فى طريقى مطرقاً مفكراً أفقت على صدمة عنيفة دفعتنى إلى جانب الطريق، وكادت تقذف بى إلى النهر الصافى، الذى مازال منذ الأبد القديم يجرى غير مبال إقامة الناس فى ماهوش أو خروجهم منها. ولكنى تماسكت وتعلقت بشجرة قريبة، وتلفت حولى لأرى ذلك الذى كاد يحطمنى بصدمة، وامتلأ قلبى غمًا وتشاءمت برحلتى. فهذا أول الطريق أصطدم فيه وأخبط بمثل هذه الخبطة الشديدة. فرأيت فارسًا من جنود تيمور هؤلاء أصحاب القلانس العالية، الذين يحسنون الانتفاش فى ملابسهم الزاهية. وكان ينظر نحوى كأنه ينتظر منى أن أشكره على صدمته. فاعترانى إحساس لا أستطيع وصفه إلا بأنه مزيج من الخوف والغضب. فإننى رجل لا أحب الحروب ولا من يخوضونها، ولا أطيق أن أرى دجاجة تذبح تحت ناظرى. فكيف بى وقد رأيت أمامى رجلا من جنود تيمور الذين يملأون الأرض دماء؟ كانت نظراتى إلى الفارس تنم عما كان فى نفسى، ووقفت أتأمله وكان منظره فى الحق عجيبًا. كان مثل الببغاء فى زينته الكاملة: فى قلنسوة حمراء فوقها ريشة زرقاء من تحتها عباءة صفراء تغطى ملابس أخرى لا أعرفها ببيضاء وخضراء، ولف على وسطه منطقة سوداء، ودلى فى جنبه سيفًا مقوسًا منقوشًا بالذهب والفضة، مرصعًا بالجواهر، ومن تحته وتحت كل زينته جواد كريم لا يقل فى ألوان زخرفه عن صاحبه. فقلت فى نفسى «سبحان الله! ما هذا

كله؟» وجعلت أصعد فيه بصرى وأصوبه من أعلى ريشته إلى حافر جواده، وأحسست أن خوفاً وغبى قد تبدلا وامتلاً قلبي ضحكاً. فتبسم الفارس وأخذ يكلمنى بلغة لم أفهم منها إلا يسيراً، فهمت منه أنه يريد أن يعرف من أنا. فقلت له أريد أن أصرفه وأتجه فى سبيلى: «أنا فقيه»، ثم هممت بالسير، فهمز جواده يسايرنى، وقال وفى صوته رنة السرور: «فقيه؟».

فهزرت رأسى أن نعم ومضيت فى سبيلى. ولكنه كرر سؤاله فى اهتمام. فخشيت أن يخذع الرجل عن حقيقتى، وهو لا يعرف لغتى. فلعل لهذا اللفظ «فقيه» معنى آخر عنده مثل تاجر أو صيرفى أو جوهرى فيحسب خطأ أننى ممن يطمع فيهم رفاق الطريق، فيبادر بإيقاع الأذى بى، فبادرت قائلاً «أديب». واخترت هذه الكلمة لأنها معروفة للناس جميعاً، ولا تحمل لبساً ولا يختلط على أحد معناها، فكل الناس يعرفون من هو الأديب. هو الرجل الذى لا يملك من حطام الحياة شيئاً. ولكن الفارس لم يعجبه هذا اللفظ، وكرر الكلمة الأولى سائلاً «فقيه؟». فملأت عينى منه وتنازعنى الخوف، ولكنى رأيت أنه قد بدأ يعبس. فخفت إن ضحكت أن يغضب، واكتفيت بأن هزرت رأسى له بالإيجاب وفوضت أمرى إلى الله. فأسرع الرجل فنزل عن جواده وفتح لى ذراعيه. وأقبل على يضمنى إلى صدره ويقبلنى بين عينى ويرطن بكلام كثير. ففهمت

منه إجمالاً أنه قائد كتيبة فى جيش تيمور ، وأنه طالما طمع فى أن يكون عنده فقيه ليكون لكتيبته زينة إسلامية . فلما عرف أننى فقيه سره ذلك ، وعزم على أن يأخذنى معه . ثم أمرنى فى رفق أن أسير وراءه ، فقلت «سبحان الله ! أهذه محنة جديدة؟» ووقفت حائرًا مترددًا . فنظر إلى وصاح بى مكرًا أمره أن أسير وراءه . فلم أجد بداً من السير ، ومضيت فى أثره مطرقًا أفكر فى أمرى . ثم قلت أعزى نفسى «إن السير وراء هذا الفارس لن يغير شيئاً من حالى ، فقد خرجت من ماهوش لأسير فى الأرض ، وسواء لدى شرق وغرب . وانطلقت أمشى قريباً من ذيل جواده وأنا أكاد أغمض عيني» .

وما زلنا نسير حتى مالت الشمس عن كبد السماء ، وأخذ التعب يدب فى أوصالى ، فنظرت إلى الفارس لعلنى أرى عليه علامة تبشر بأنه يريح جواده ، فلم أجد على مظهره ما ينم عن شيء من ذلك ، لأنه كان يهز رجله ويغنى مرحًا . ومضى زمن طويل بعد ذلك حتى بلغنا قرية ، فاجتزنا بها . وفيما نحن خارجان منها طلع علينا فارس آخر عند منعرج الطريق ، فلما رأنا أقبل نحونا يسعى ، وكان فى زينته أشبه الناس بصاحبى حتى خيل إلى أنه توأمه وقد ولدا معاً فوق جواديهما . فلما اقترب الفارس منا حيا صاحبه ، ووقف حياله يحدثه ، ثم التفت نحوى وجعل يفحصنى ببصره حيناً ، ثم عاد إلى صاحبه يراطنه باهتمام . ولم أدر ما كان بينهما من الحديث إلا أننى سمعت الفارس يصيح وهو ينظر نحوى : «فقيه؟» .

فخفق قلبي خفقة شديدة، ونظرت إليه مندهشاً، ثم أحسست أن الضحك يكاد يغلبني. فملكنت نفسي وقلت باسمًا «نعم فقيه». فنظر إلى صاحبه وجعل يحادثه، ثم سمعت الحديث يحمي والألفاظ تسرع فيما بينهما، ثم رأيت الرجلين يجردان سيفيهما أحدهما حيال الآخر وقفة الحرب والنزال. فدب الأمل إلى قلبي وقلت لعل هذا أول الفرج، فليس للفريسة من أمل إلا إذا تطاحن عليها الوحوش. ووقفت أنظر إليهما متفرجاً؛ وكانا مثل ديكين وقفاً ليتناقرا. ولكني لم ألبث إلا قليلاً حتى رأيت المنظر يتحول فجأة تحولاً كريهاً، فإن الفارسين لم يقفا وجهًا لوجه إلى نهاية المعركة المرة، بل رأيت صاحبي الأول يتجه نحوي مجرداً سيفه ليقبضني. نعم ليقبضني أنا. ونظر قبل أن يتم عمله إلى قرينه وقال له ما معناه «سأقتله حتى لا يكون لي ولا لك». ففهمت من هذا أن ما بينهما من الجدل كان في شأني، وعلمت أن صاحبي أراد أن يحسم الخلاف الذي بينه وبين صاحبه بأن يبقر بطني. وكان لابد لي من الدفاع عن نفسي بما استطعت، فصحت قائلاً: «حاسب، ماذا تريد؟».

فتوقف الرجل وجعل يبين لي قصده في لهجة الاعتذار. فقلت متكلفاً الهدوء: «هذا رأي غير صائب».

فرد علي بكلام كثير يحاول به أن يفهمني أنه لا يريد إلا العدالة، فإنه لا يليق عدلاً أن أكون فقيه غريمه بغير حق، لأنه قد سبق إلى وضع يده علي. فلم أرد أن أجادله في ذلك، والعدالة

على أية حال أمر نسبي يختلف الناس فى فهم معناها، فيراها القوى من زاوية والضعيف من زاوية أخرى، ولا سبيل إلى تلاقي نظريتهما. ولم أجد وسيلة تنجيئني من هذه العدالة إلا أن أجرد لها لسانى وحيلتى. فقلت وأنا أرتجف:

- هذا كلام حسن. ولكن ألا ترى أيها الشجاع أن تحتفظ بى حيًا؟ فإنى أقدر على أن أنفك وتستطيع أن تجد فى خيرًا كثيرًا. فنظر إلى غير مصدق فقلت له مسرعًا:

- أنا رجل شاعر، أقدر على أن أرفع من شأنك حتى يراك الناس سيد الخلق؛ وأقدر على مدحك بما لا تتصور أنه فيك، فيصدق الناس أنك أفضلهم وأسمحهم وأعلمهم وأعقلهم وأحكمهم وأشجعهم. ولست أدري أفهم قولى أم لم يفهمه، ولكنى رأيت قد لان ورق لى فأتبعت قولى:

- إنك رجل باسل بغير شك وتستطيع أن تقاتل خصمك حتى تقتله أو تعجزه. فإذا تم لك ذلك سرت وراءك شرقًا أو غربًا كما تشاء. ولكن هذا رأى لم يعجبه، فأطرق مفكرًا وهو يتأفف، ثم رفع رأسه بعد حين وقد تهلل وحهه كأن فكرة موفقة سنحت له، وتقدم نحوى باسمًا ووضع يده على كتفى قائلاً: «عفارم!».

ثم لوى عنان فرسه وأسرع إلى صاحبه، وسرت وراءه فى لهفة. فسمعته يقول له: «أتذكر الكلب الأسود الذى أودعته عندى؟» فقال له الفارس باهتمام: «نعم بلا شك وأنا فى حاجة إليه». قال له

صاحبي مبتسما فى خبث «إذا أردته فانزل لى عن هذا الفقيه»
وأشار إلى. وصمت قليلا ثم قال: «والأ فأنى قاتل كلبك عند عودتى»
وكانت هذه الكلمات كالصاعقة إذا انقضت على الرجل. فنزل عن
جواده مترنحا، وجثا على ركبتيه، وجعل يتوسل إلى صاحبه بكل
كلمة رقيقة أن يبقى على كلبه، وأن يفعل بى ما شاء. ثم مسح دمعة
ثارت فى عينه، وسلم لصاحبه بغير قيد ولا شرط ولست أنكر أننى
قد رقت للرجل فى حزنه من أجل كلبه، وشيعته بنظرى وهو
منصرف عنا وفى قلبى مودة له ورحمة.

ولم يطل بنا الوقوف بعد ذلك، فسار صاحبي المنتصر فى
طريقه، وأمرنى أن أسير وراءه وجعل يهز رجله ويغنى. وسرت
وراءه فى شىء يشبه الذهول، أتحرك بلا وعى كالآلة الصماء.
وكان النهار ينصرم وأنا أجرر قدمى وراء الجواد، وتمشى
التعب فى مفاصلى وعروقى، واستولى الضيق على نفسى، ولاح لى
الفضاء مثل لجة البحر الهائج لا تقع العين فيه إلا على مجهول. ثم
أقبل الليل بعد أن كادت نفسى تزهر، فدعوت الله أن يبعث الفرج.
ونظرت إلى الفارس فى حقد، وأخذت أتلو بعض آى من القرآن.
وما كان أشد فرحى عندما رأيته يقف فجأة كأن شيئا أمسكه. ونزل
عن جواده وجعل يمشى وينظر حوله ليختار مكانا للمبيت. وكنا
قد بلغنا جانب غابة عظيمة لا تبلغ العين آخرها، قد اكتست

أرضها بالعشب الأخضر، وتشابكت فى أعلاها الغصون. فجلست
لألقف أنفاسى وأريح أعضائى، ولم يلبث الظلام أن أرخى سدوله.
ثم طلع القمر وكان شعاعه يفيض على الغابة جمالا باهرا. وهذا حر
النهار إلا ما بقى منه كامنا فى الهواء إذا هب رخاء من الغرب.
وأخذ نور القمر يزداد حتى تخلل فرجات الأغصان، وكسا البساط
العشبى الذى تحتها، وتراقصت الظلال وتلاعبت كلما هبت نسمة
من النسيمات. فاسترعى ذلك الجمال بصرى وجلست ساعة أتأمله.
وكانت المتعة التى أصبتها كافية لإزالة تعبى واضطرابى، وشعرت
بنشوة تملأ صدرى، ورأيت صاحبى الفارس يسير فى أطراف الغابة
يجمع الأحطاب. فاسترحمت إلى منظره الإنسانى وأنس قلبى إليه
وأخذت أنفاسى تعود إلى هدوئها ودب البشر إلى نفسى.

ولما شعرت بما داخل نفسى من الخفة قمت متجهاً إلى الفارس
وقلت له مستعيراً لفظه: «عفارم أيها الشجاع!».

ولم أقصد من قولى شيئاً سوى أن أحدثه. وما كدت أفاتحه بهذه
الكلمة حتى استجاب وأقبل على حديثى منطلقاً كأننى فككت
بالكلمة عقدة لسانه. وسأعيد ما قاله لى بلغتنى؛ فقد كانت لغته
رطانة لا تفهم إذا نقلتها عنه نصاً. قال باسمًا:

— ساهيئى لنفسى طعاماً وشراباً. نعم فإنى أهيئى طعامى بيدى
دائماً، ولا أحب أكل إلا إذا طبخته وسويته، وما زجت بين ما يقلى
منه وما يسلق، وقدرت ملحه وذررت عليه الأقاويه بمقدار.

ثم استمر يضرب الأمثال مما صنع ، ويذكر الصنوف وتواريخ صنعها ، وهو فى أثناء ذلك يذهب ويجىء يجمع الأحطاب فى ضوء القمر. فقلت له باسمًا : «هذا بديع. ولا شك فى أنك رجل ماهر». فنظر إلى مسرورًا وبدت نواجذه السوداء من فمه الأهمم ، ثم مال على جعبته وأخذ ينكشها قائلاً : «ليس هنا إلا بقايا مجففة. ولو كان فى الوقت فسحة لكان عشائى لحماً طرياً». ثم أشار بيده إلى الغابة وقال : «سأريك فى الغد إذا بقينا هنا كيف أسدد الرمية وكيف أثبت الطير فى كبد السماء».

فقلت له باسمًا : «إن من كان مثلك لم تعص له الوحوش أمراً». فقال مرتاحاً : «وإذا شئت فإنى أريك كيف أطعن بالرمح وكيف أحطم بالدبوس ، فإنى صاحب السبق فى هذه الفنون جميعاً». فضحكت ضحكة لأخفى الرعشة التى سرت فى جسمى ، وقلت مبادراً : «لا لا ، ليس فى هذه الحال التى نحن فيها ما يدعو إلى رمح أو سيف».

فمضى فى حديثه وجعل يصف لى مغامراته ومنازلاته ، وكلما بدا على وجهى أثر من قوله زاد حماسة ، حتى كان أحياناً يمسك عن العمل لكى يشير بيديه. وفطنت إلى أننى أضيع عليه بعض وقته ، فانتهزت فرصة سكوته لحظة وهو مشغول بقدر زنده ليورى به ناراً ، فتسلك ذاهباً نحو الغابة ، ووقفت أتأمل أشجارها ، ومالت نفسى إلى أن أجول فيها جولة ثم أعود بعد أن يكون صاحبى قد هيا طعامه.

وسرت فى الغابة وكان للهواء فيها عطر خفيف من رائحة الأوراق والأزهار، وكانت ألوان الشجر مختلفة وأشكاله متباينة، فمنه ما كان غزير الورق ومنه ما كان عاريًا، ومنه ما كان ضخم الجذع وما كان دقيقًا يتسلق متوكئًا على غيره. وجعلت أتنقل فى الغابة من بقعة ضاحية يغمرها نور القمر إلى أخرى ظليلة تتراقص فوقها الظلال، وكان الليل الساجى يفعل فى نفسى فعل السحر، فلم أشعر بمرور الزمن ولا بطول السير، ولم أتلفت إلى ورائى لأنظر أين صرت من صاحبى، حتى رأيتنى بعد حين أمام صخرة وعرة لم أنظرها إلا عندما صرت على خطوات قليلة منها، كأنها خرجت فجأة من جوف الأرض لتعترض سبيلى. فأتجهت نحوها فوجدتها ربوة مهشمة مدببة الجوانب كأن سطحها كله من أنياب وأظفار. وهى تنطوى على كهف يبعث الرهبة فى النفس، تخرج من ثناياه قناة فيها ماء صاف كأنه بلور مذاب، ينساب جاريًا وهو يغنى بخيرير يلذ للأسماع، خافت يشبه التهانف بالضحك فى مزاح العذارى. وكان يهبط إلى حوض من الصخر مهشم مصقول يلمع النور فوقه فإذا هو يبدو أخضر مثل قطعة من الزبرجد من أثر ما عليه من الطحلب الدقيق. فوقفت لحظات أتأمل المنظر البديع، وكانت عينى لم تقع من قبل على مثله، فشملتنى نشوة، واهتزت نفسى طربًا. ونسيت كل ما كان من هجرتى ووحدتى، حتى لقد نسيت جوعى، ووجدتنى أدندن بالغناء. وتواردت على

الألحان المشجية، فجلست على جانب الصخرة وغبت فى غمرة أشجاني، وجعلت أقلب عيني وأتمتع بالمنظر، وملأت صدرى من الهواء العطر، ووجدت كل حواسى نصيباً من اللذة، من خريف الماء منساباً فى جداوله، إلى ريح الزهر المشتعل فى خمائله، إلى لون الورد الناعس فى غلاته.

جلست هناك وقتاً لا أدرى أقصيراً كان أم طويلاً، ثم شعرت فجأة بشيء من الرهبة يمسنى من السكون العميق الذى حولى، فما كدت أتنبه له حتى خيل إلى أننى فى عالم صاخب مضطرب. سمعت خفق الأوراق على الأعواد، ووسوسة النسيم بين الغصون، وخشخشة الحشرات بين الحشائش، فاضطرب خيالى وقف شعراً رأسى، ولم أطلق البقاء فى مكانى. وهممت بالرجوع إلى موضع صاحبى فنظرت حولى لأرى الطريق التى جئت منها فلم أجد أمامى إلا غابة شجراء، وضوء القمر يسطع من فوقها ويتخللها. فخيّل إلى أن المكان قد امتلأ أرواحاً من الجان تتلاعب وتتواثب من حولى، وأسرعت فى سيرى وأنا أتلقت ورائى ولا أتبين لى طريقاً. وفيما أنا كذلك لاح لى عن بعد شيء يتحرك، يشبه أن يكون قطاً أو فهداً أو ظبياً أو أرنباً أو غير ذلك مما يسير على أرض الغابات يلتمس قوتاً. فشعرت بوجهى يتقد، ورفعت يدي لألمس جبيني فوجدته بارداً تبلىه قطرات من العرق. وحاولت أن أشجع نفسى بأن

أسمع صوتي، فحاولت أن أغني، ولكن الألحان شردت عن ذهني،
وجعلت ألوهم نفسي على هذا الفزع الذي لا سبب له وأجاهدها بكل
ما استطعت أن أتذكره من الحكم. ولكن ذلك كله لم يجدني شيئاً.
ثم سمعت صوتاً لا شك في أنه كان صوت حيوان مسكين يعانى
الآلام المبرحة بين أنياب عدو مفترس أو مخالفه أو أظافره. فوقفت
حيث كنت وجعلت أستمع. وأمسكت أنفاسي فسمعت الصرخات
تتوالى فى فزع، ثم سمعتها تضعف قليلاً ثم انقطعت فجأة. لقد
استسلم الحيوان المسكين بعد أن ضعف واسترخى وخضع لما
لا حيلة له فيه، وذهب إلى المصير المحتوم فى جوف الوحش
المفترس، كما ذهب ألوف وألوف من أسلافه على مر الدهر الطويل.
ولم يكن من العجيب أن يسطو حيوان على آخر فى الغابة، فإن
هذا هو قانونها الأزلى. ولم يكن من العجيب أن أجد مثلاً جديداً من
احتياال الكائنات على اقتناص الرزق، فإن قانون الغابة كان دائماً
هكذا: من عزَّ بَزَّ، ومن غلب افترس، ومن استطاع صيداً اصطاد، ومن
قدر على الروغان راغ. ولكنى مع هذا اهتزرت هزة عنيفة عند سماع
ذلك الصوت. فلما عاد السكون العميق إلى الغابة، خيل إلى أن ذلك
الصمت أكثر ضجة من أعنف الهيعات فى معامع الحرب. وصرت كلما
خطوت خطوة تمثلت حولى نضالاً متصلاً فيه فتك وفيه فناء وفيه
مطاردة وهروب. وكلما مررت بكومة من الأوراق الجافة وسمعت
بينها خشخشة، تمثلت لى صورة معركة دامية بين قوى وضعيف

أو بين سريع وبطىء. ولج بى التصور حتى ضاقت نفسى بالسكون
الشامل الذى لا ينطوى على سلام بل يستتر تحته حرباً متصلة قاسية.
وتمنيت لو تمزف هذا الصمت عن زمجرة الأسود وضحكات
الضباع وفحيح الأفاعى، فقد كان ذلك أرفق بنفسى لأنه لا يخدعها
بمظهر كاذب من سلام مموه خداع. وبدت لى الحياة الإنسانية عند
ذلك جنة نعيم إذا قيست بالحياة فى هذه الغابة الساكنة، لأن
الإنسان قد أقام قوانين تحمى الضعفاء من الأقوياء، وتبجح للبطىء
أن يسعى على بطئه، وللصغير أن يبقى على هوان أمره. وأسرعت
فى سيرى وأذهلنى الاضطراب عن التفكير فى مكانى أو فى المآل
الذى ينتهى إليه سيرى، وجعلت أخطب بين الشجر خبط عشواء
لا أبالى أين تحملنى قدمائى. ولم أتنبه إلا فجأة وقد لاحت لى بين
الأشجار عن بعد أنوار لهيب تسطع فوق الجذوع والأغصان. فعدت
إلى صورة صاحبى الفارس، فاتجهت إليه وكان السير قد أجهدنى
واضطراب الفكر قد نال منى، فأحسست بتعب شديد بشيع فى
أعضائى، وتمنيت لو اتخذت من بعض أكوام الورق الجاف فراشاً.
ولكنى تحاملت على نفسى حتى بلغت مكان الفارس، فوقفت لحظة
أنظر إليه وهو منصرف إلى إعداد طعامه، ينحنى على النار ليضع
فيها أعواداً تريدها ضراماً، ويميل عليها ينفخ فيها ورأسه الأصلع
يلمع فى ضوءها والشرر يتطاير من حوله. فلما أحس بمقدمى رفع
رأسه وهو يبسم سروراً، حتى بدت أسنانه السوداء من تحت

شاربيه. فارتميت إلى جانبه خائر القوى وخرجت منى آهة نفست بها عن صدرى. فقال لى بعد أن نفخ فى النار نفخة: «لقد سرت طويلاً». فقلت له فى صوت ضعيف: «أما نضج طعامك؟»

فقال فى مرج: نعم كاد ينتهى. حساء وأرز بقطعة من زند البقر. فقلت له: هنيئاً مريئاً.

فقال وهو يبلع ريقه: وسنبونج ولوزينج. فقلت ضاحكاً: إنها وليمة.

فضحك وقال وهو يشير إلى زق من جلد المعز: وكأس من النبيذ المعتق.

فقلت مبادراً: أما هذا فلا شأن لى به.

وما كدت أنطق بهذه الكلمة حتى خجلت خجلاً شديداً، لأن لفظى خاننى. كنت حقاً شديد الجوع، ولكن ما كان ينبغى لى أن أدعو نفسى إلى طعامه. وكأنه قد لاحظ خجلى فقال لى مترفعاً: ستذوق طعامى وستحكم على مهارتى.

فسرى عنى وقلت مبتسماً: أشكرك. إنك رجل كريم. فنظر إلى مسروراً، وهز رأسه مرتاحاً إلى مديحى، وكشف غطاء القدر وجعل يقلب ما فيها بخنجره وهو يمص شفثيه، ولا أكتفم أن رائحتها كانت تنفذ إلى أعماق صدرى طيبة شهية. وأخرج قطعة لحم فجسها بظفره ثم أعادها إلى القدر، وتحرك فى مجلسه وفرك يديه مسروراً وقال: «سيكون عشاء عظيماً». ثم قام يهيئ السفرة، فقمت معه لأساعده، وما هو إلا قليل حتى كنا نتسابق فى التقام الطعام.

ولم يقم الفارس عن طعامه حتى شرب أكثر زقه وتركه على الأرض مفشوشاً ، وكنت قد أمتعت نفسي بالطيبات وأثنيت على طعمها ورائحتها وكان القمر لا يزال في كبد السماء فقامت لأصلي ما فاتني من الأوقات. وجلسنا بعد ذلك نتسامر، حتى طالت ظلال الأشجار تحت القمر المنحدر، واشتد برد الليل فتلففت في ثيابي، واضطجعت فوق كومة من الحشيش الجاف، وتغطيت بشيء منه، وعمد صاحبي إلى كومة أخرى ففعل كما فعلت.



قمت فى الصبح فتوضأت وصليت. وكانت الصلاة إلى جانب الغابة قرة عين. فهناك كنت أتمثل قدرة الله فى خلق هذا الكون البديع، وكانت أصلى بقلبى وعقلى ولسانى. ثم أخذ الفارس يستعد للسير بعد أن أصاب شيئاً من الزاد وأشركنى فيه ونحن على عجل، وأقبل على فرسه يمسحه ويخدمه وأنا أنظر إليه متعجباً وأسائل نفسى عما جمعنى به. فسرحت أفكارى فيما رأيته الليلة السابقة من نضال بين الأحياء، حتى كدت أعتقد أن الحياة الإنسانية ليست إلا جزءاً من حياة الغابة، وكدت أنكر ما توهمته من فضل امتياز به الإنسان على سائر الحيوان، إذ أقام لنفسه نظاماً وسن من القوانين ما يحمى الضعيف من القوى، ويكفل الحياة للصغير والبطيء. كدت أنكر كل هذا، بل لقد خطر لى أن الحيوان فى الغابة أسلم وآمن فيما بينه وبين نفسه، لأن النضال إنما يكون بين صنوف مختلفة منه، فالأسود لا يفترس بعضها بعضاً، ولا يتخذ بعضها البعض خدماً، ولا تفرق بين أنفسها بحدود، ولا تجعل فى جنسها أمماً يحتقر بعضها بعضاً أو تتقاتل وتتفانى فيما بينها. وهى لا تتناكر ولا تتشاحن لأن الله لم يصبها بذلك المصاب الوبيل: تحريك اللسان بنطق اللغات. وليس فيما من يميز نفسه على سواه بعلامة مصطلح

عليها، فلونها واحد وأنيابها متشابهة وذيلها سواء في طولها، ولم يمتحنها الله بمحنة الملابس التي يتخذها الإنسان وسيلة للتفريق والتمييز بين بعض وبعض. فكل فرد في الغابة مساو لكل فرد آخر من جنسه. جعلت أفكر في هذا حتى بلغ بى الأمر أن تمررت على الإنسانية، وجعلت أشدد في تعنيفها واتهمتها بأنها تدارى سيئاتها تحت ستار خداع استعانت به على إخفاء الحقائق عن نفسها. لقد بدا لى عند ذلك أننى أسير وراء الفارس كما يسير فرسه من تحته، لا أملك أن أتحول عنه كما لا يملك الفرس أن يتحول عنه، وأنه إنما يخدعنى إذ يترفق بى أو يبسم فى وجهى؛ فإن جوهر الأمر كله أنه أخضع إرادتى لإرادته، وليس بعد هذا مرتبة أبلغ فى القسر والعدوان.

وساقتنى هذه الأفكار بدفعها حتى تصورت الإنسان أحق الكائنات وأبشعها وأقساها. تمثلته عند ذلك عبداً للألفاظ التى كان يحلوه منذ القدم أن يخدع نفسه بها. كان فى العصور السالفة ينحت قطعة من الحجر ويسمىها بلفظ جميل فإذا هى عنده إله مقدس يعبدّه ويتقرب إليه، ويقوم عليه السدنة والكهنة يتجرون باسمه الجميل. ثم ها هو ذا اليوم يجعل من الجرائم فضائل ويسمىها أسماء جميلة – يسميها «الحرب» و «المجد» و «العظمة» وما هى إلا جرائم قتل ونهب وتدمير. هذا «تيمور» وما أحراه أن يكون فى أعين الناس أشد المجرمين خطراً، وما أجدر الناس بأن يقيدوه فى السلاسل ويجعلوه

فى مأمن لا يستطيع الهروب منه. ولكنه أفلح فى أن يسمى جرائمه
أسماء جملىة فاستطاع أن يفوز بالسلطان الأعظم فى الأرض.
ومر الوقت سريعاً وأنا أنظر إلى صاحبى وأناجى هذه الخواطر
المضطربة، ثم رأيتة قام وركب وأشار إلى أن أسير وراءه، فقامت
خاشعاً ومضى فى سبيله يهز رجلية ويغنى على عادته. ولو واتتنى
خفة النفس لغنيت مثله، ولكن أفكارى أبعدت عنى الألحان جميئاً.
فسرت مطرقاً حتى سمعته بعد حين ينادينى. فرفعت رأسى فرأيتة
يومئى إلى أن أقتررب منه. ثم سألتنى هل أحب الركوب وراءه؟ فدار
رأسى ولم أدر بم أجيب. فظن الرجل أننى أتردد لأننى لا أعرف
الركوب، فتحرك وجعل يبين لى الطريقة المثلى لن أراد أن يعلو
ظهر الخيل، وعلمنى كيف أضع رجلى اليسرى فى الركاب وكيف
أتحامل عليه وأثب على ظهر الفرس، ثم مد يده لى يساعدنى
حتى علوته من وراءه. وخشيت أن يرانا أحد على هذه الحال
فيسخر منا فتلفت حولى فلم أجد أحداً. فسكنت وراءه وأمسكت
بردائه، ووجدت بعد قليل راحة فى الركوب بعد السير الذى هد
قواى فى اليوم السابق.

واتصل الحديث بيننا، وكنت أجد بعض المشقة فى فهم أقواله،
فقد كانت لكنته الأعجمية تخفى ألفاظه، ويزيدها فساداً أنه كان أهتم
لا يحسن النطق بالحروف. ولكنى مع هذا كنت أفهم قوله تخميناً،
ولم تكن الحاجة تدعو إلى فهم كل كلامه. فكان إذا أراد مخاطبتى

لفت رأسه نحوى فأرى صفحة وجهه كأنها صورة رسمها طفل فى ورقة يعبث فيها، وإذا أردت أنا مخاطبته أخرجت رأسى من ورائه حتى يرانى. ولست أدرى كيف كان يرى صفحة وجهى، ولكنه كان بين حين وآخر يضحك إذا وقعت عينه على عيني حتى يبدى أسنانه السوداء المنتورة فى فمه. فكنت أرد عليه بضحكة مثلها تخرج من ثنايا قلبى. وكان أكثر ما قاله لى لا يزيد على وصف مغامراته فى الحروب مع تيمور. ويمكن للإنسان فى سهولة أن يلخص ذلك كله فى بضع كلمات: إنه شارك فى سفك دماء الكثيرين من بنى آدم. وكنت أحياناً أضيّق بحديثه، وأهم بأن أقذف نفسى من ورائه لولا أن الجواد كان يسير. فكنت أحاول أن أصرف حديثه إلى معنى لا يثير فى خيالى مناظر الدماء، واستطعت بعد لآى أن أستدرجه إلى التحدث عن نفسه، وعن أولاده، فوجدت ذلك الحديث أكثر إيناساً لأنه دلنى على أن الرجل كان آخر الأمر إنساناً يعرف معنى المحبة.

وأخيراً دخلنا ريف جانبولاد، وكان منظره بهيجاً. كان الهواء يهب على البساط الأخضر فيتموج سطحه كما يتموج البحر أمام هبات النسيم. وكان الزهر يتخلل الخضرة بين أحمر وأبيض وأصفر، ومن فوقه ترفرف الفراشات متقلبة متقلبة تتواثب كأنها تلاعب الزهرات فوق أعوادها وتضحك منها إذ هى لا تستطيع أن تثب وراءها. فملأنى المنظر مرحاً واهتزت نفسى بعواطف نقلتني

إلى عالم من الأحلام، فنسيت الفارس وحديثه وانطويت على نفسى
أتأمل ما طبع فيها من الصور البديعة، وتصورت عليّة ابنة علاء
الدين وقلت، فى نفسى: «أين أنت الآن ياملاك السماء؟ وأين انتهى
بك المطاف الذى شردك إليه تيمور؟» فما صحت من تأملى إلا على
وكزة فى صدرى، فإذا بصاحبى يدفعنى بمفصل مرفقه دفعًا مؤللاً.
فقلت له وأنا أكظم غيظى: «ماذا تريد منى؟».

فقال لى فى حق: «ألا تسمع؟ أقول لك انزل. انزل وأحضر
اثنتين من هذه».

فلم أفهم وقلت له مستفهماً: «اثنتين من أى شئ؟».
فأدار وجهه نحوى وقال: «نعم. اثنتين من هذه..».
وأشار برأسه إلى حقل مزروع بالكرنب. ما كان أعجب صاحبى
هذا فى تقلب نزواته!

وكان الحقل يانع الخضرة يغطيه كرنب كبير تفتحت أوراقه
الحضراء عن قلب أبيض صاف. فقلت متردداً: «بكم؟».

فوكزنى مرة أخرى وقال: «انزل. هات اثنتين. ألا تفهم؟».
فلم أجد مهرباً من وكزه إلا بأن أتحرك وأهم بالنزول، وكان
لا يزال واضعاً قدميه فى الركاب يهزهما والجواد سائر به قدماً.
فصحت به: «قف الفرس».

فشد اللجام ورفع قدمه اليسرى من الركاب ثم ساعدنى على
النزول. ولست أدرى ماذا فعلت، فقد وقعت عن ظهر الجواد

وتشبهت بالفارس حتى كدت أوقعه معى ، لولا أنه دفعنى ف وقعت
على الأرض وحدى ، وقمت أنفض التراب عن ثيابى . ثم اعتدلت
وفى وجهى شىء من التحدى ، فصاح بى غاضباً «أسرع ثم الحق
بى» وهمز الجواد وسار فى طريقه . فلم أجد بداً من الطاعة ، وتلفت
حولى فلم أجد أحداً ، فملت إلى طرف الحقل ونزعت منه كرنبه
قريبة ، وما كدت أفعل حتى سمعت صوتاً يصيح بى : «ماذا تفعل؟» .
ثم خرج رجل من عريش فى أقصى الحقل وجاء يجرى نحوى .
فنظرت نحو الفارس فوجدته بعد عنى ولا يزال يهز رجله فوق
الفرس ، فوضعت الكرنبه على الأرض وأسعرت لألحق به . ولكن
صاحب الحقل لم يدعنى ، وجرى ورائى وهو يصيح ويهدد ويشتم ،
حتى أدركنى وأخذ بتلابيبى . وسمع الفارس الصوت فالتفت ووقف
الفرس ، ثم لوى عنانه وأقبل نحونا مسرعاً . وكان الرجل يدفعنى
فى صدرى ويكيل لى السباب كيلاً ، ثم رفع هراوة فى يده وكاد
يهوى بها على رأسى ، لولا أن الفارس همز جواده وأدركنى . فلما
رآه الرجل أرخى يده وأنزل هراوته وأطلقنى من قبضته ، وقال فى
خوف وهو ينظر نحوه : «هل هو معك ياسيدى» فأقبل عليه صاحبى
وأخذ يقتص منه بما شتمنى به ، ورفع يده بالسوط . فصاح الرجل :
«لم أعرف أنه معك» . ثم جرى نحو الحقل فرفع الكرنبه التى
قطعتها وقلع معها ثلاثاً أخرى وجاء يحمل كل اثنتين فى يد من
يديه الغليظتين ، حتى قدمها إلى - أربع كرنبات عظيمة منفوشة .

فقلت له حانقاً: «ومن سألك أيها الأحمق أن تأتي بكل هذه؟» فانفجر الرجل كأنه أراد أن يفرغ كل غيظه فيّ وقال صائحاً: «خذ فاحمل. خذ أيها الكسول» ثم جعل يدفع إلى واحدة بعد أخرى وهو كلما أعطاني إحداها شتم شتمة جديدة ودفعني في يدي إذ يناولني. فلما فرغ منها انصرف عنا وهو يغمغم. وجعلت أحتال على طريقة أستطيع بها أن أحمل حملي، وقضيت في ذلك حيناً أضعه في أشكال وأوضاع وهو ينفطر ويتساقط، حتى استطعت أخيراً أن أجمع كل كرنبتين على كتف وأمسك رأسيهما بيدي من أمام، ونظرت إلى الفارس منتصراً. فارتاح لما رأى وقال لي «عفارم»! ثم ابتسم وهمز جواده وسار وسرت خلفه ولم يبق ثمة أمل في ركوبي.

لم نلبث أن أوغلنا في ريف جانبولاد، وكثر الناس على الطريق وفي الحقول، وكانوا كلما مر بي أحدهم نظر إلى نظرة طويلة يتأملني وأنا سائر وحملتي يهتز فوق كتفي مع حركة جسمي، ثم يرفع كم ثوبه إلى وجهه ليخفي تحته ضحكته. فكنت كلما مررت بواحد منهم نظرت إليه، حتى إذا رأيته يرفع كفه بادرت كذلك بضحكة، فترتفع على أثر ذلك قهقهة صريحة مرحة كانت ترن في أذني أحلى رنين. أيها الأشقياء من بني الإنسان، التمسوا الضحك كلما أحسستم بالرغبة في البكاء. التمسوا الضحك كلما شعرتم بدبيب اليأس بين ضلوعكم، فإن اليأس لا يلبث أن يذوب تحت نوره الساطع.

هذا أمر مجرب عرفته من طول ما قاسيت في الحياة.
واقتربنا بعد حين من قرية وكانت الشمس قد علت في كبد
السماء واشتد الحر، فتحرك الفارس في سرجه ونزل إلى ظل شجرة
في جانب ساقية على مقربة من القرية، واخترت لنفسى مكاناً
معتزلاً وجلست أنظر إلى الحقول وإلى الناس ممن يذهبون إلى القرية
أو يخرجون منها.

ثم تنبهت على صوت صاحبي يناديني: «هو. ألا تسمع؟» وكان
إلى ذلك الوقت لم يسألنى عن اسمى. فعذرته فى جفاء ندائه لى،
ونظرت إليه مستفهماً. فأشار إلى بيده أن أذهب إليه. ثم قال:
«ألم تجع بعد؟» وكنت بغير شك جائعاً. فهزرت رأسى أن نعم،
وحسبت أنه كان يخفى طعاماً فى موضع لم أره. فقال لى: «إذاً ماذا
نفعل؟» ففاجأنى سؤاله ولم أحر جواباً. أيسألنى أنا عما نفعل؟ وهل
سرت وراءه من ماهوش لأدبر له طعامه؟ ونظرت إليه والعجب
مرتسم على وجهى. فأعاد قوله: «ألا تسمع؟ ماذا نفعل؟...» فقلت
له: «إذا لم نجد أكلاً فلا يمكن الأكل». فلم يعجبه ردى وقبض وجهه
وأطرق قليلاً ثم رفع رأسه باسمًا وغمز بعينه مشيراً نحو القرية.
فثارت فى نفسى شكوك كثيرة، وهزرت رأسى مستفهماً. فضحك
وقال: «أذهب إلى هناك. فالتمس لنا طعاماً». وكأن حجراً قد أصاب
رأسى عند ذلك، فتراجعت أترنج وصحت «ماذا؟» فأعاد على قوله
وإيماءته وبسمته، فزادت حيرتى. إن أهل القرية كثيرون يبلغون

المئات أو الألوف، وقد عجزت عن صاحب حقل الكرنب وحده فما بالى بهؤلاء جميعاً؟ واستقر رأيي على الإباء. ولم يكن الجوع شاقاً على فقد تعودت صوم رمضان فلن أعجز عن صيام يوم واحد. ولكن الفارس صاح بي: «ماذا يؤخرك عن السير؟» فتجرت وقلت: «إنني لا أملك نقوداً». فنظر إلى نظرة فيها ازدراء، ولكنه سكن لحظة يفكر، ثم لمعت عيناه وقال متحمساً: «عفارم! خذ هذه فبيعها واشتر بئمنها»، وأشار إلى الكرنب. فسمرت في موضعي ولم أتحرك، إذ كانت هذه أخت الأخرى، ولا خيار بين البيض الفاسد. فلما رأى الرجل أنني لا أتحرك قام وهزني من كتفي هزة عنيفة وصاح بي: «هو. لا تضيع الوقت». فلم أجد بداً من الطاعة، وحملت الكرنب وسرت به نحو القرية. فلما دخلتها وجدت جدراناً من الطين قد رصت رصاً ليس فيها سوى فتحات صغيرة أذكرتني بيوت الدجاج. ورأيت الدواب تخرج منها، فحسبتها حظائر الماشية جعلت في طرف من القرية ولكني كلما سرت لم أر إلا جدراناً متشابهة ورأيت الناس يدخلون ويخرجون منها بثيابهم المتربة وعيونهم الرمضاء. مساكين هؤلاء، هل يكون بينهم من يشتري الكرنب؟ وسرت حتى بلغت آخر القرية فوجدت براحاً من الأرض فيه أطفال يلعبون بكرة يتقاذفون بها. وكنت أحب الأطفال منذ خلقتني الله، ولا أرى منهم أحداً حتى أذكر ولدي عجباً وجميلة. ما كان أشوقني إليهما وما كان أشد حنيني إلى رؤيتهما! لقد تركتهما

منذ يومين طويلين كأنهما دهر من الدهور. وكنت لا أدري كيف أمسيا ولا كيف أصبحا ولا أعلم هل أصابا عشاء أم فاتهما العشاء والإفطار. الله لهما من حبيبين فهو أشفق عليهما منى وأبر بهما. وتقدمت نحو الأطفال وأنا أمسح دمعتي، ووقفت أنظر إليهم وشفطاي تختلجان وقلبي يخفق.

كم كان فى هؤلاء من أمثال ولدى! وهل كان فيهم من تركه أبوه وهاجر من القرية كما هاجرت؟ مساكين هؤلاء الأبرياء، كانوا يلعبون فى أسماهم البالية ويفركون أعينهم الرمضاء بأيديهم الملوثة. وتأملت وجوههم الشاحبة. لقد كانت جميلة لو امتلأت لحمًا ودمًا. ونظرت إلى أقدامهم السوداء. لم تكن سوداء وإنما هو الطين الكثيف الذى كان يغطيها بلونه الكالح القاتم. مساكين هم ما كان أظرفهم فى توابثهم وتضاحكهم وتعابثهم! وتحركت نفسى إليهم فلم أملك أن اندفعت نحوهم لكى أشاطرهم ما هم فيه، وأعلمهم كيف يسدون الرمية، فقد كنت فى صباى عميدًا للصبيان فى لعبهم. وما كدت أقرب منهم حتى سدّدت إلى الكرة من يد أحدهم، ف وقعت فى صدرى وصدمتنى صدمة كدت أصرخ من ألها. لم تكن كرة علم الله بل قطعة من الطين اليابس القاسى. فوقفت ووضعت الكرنب على الأرض لأمسح ما علق بثيابى من الوسخ، وما كاد الشياطين يبصروننى أفعل هذا حتى علا ضحكهم وأقبلوا على يصفقون، ويستعدون لكى يتخذونى هدفًا لقذائفهم، فخشيت

على نفسى وحملت الكرب مسرعاً ورجعت من حيث حثت وأنا
أسمع تناديهم وتضاحكهم وتحريض بعضهم على أن يسرعوا
لتسديد قذيفة جديدة ليدركوا منى متعة أخيرة قبل منصرفى. وكان
قلبى مع ذلك لا يزال يخفق حنيناً إليهم عندما بلغت أقصى الميدان
وبعدت عن مدى رمايتهم.

عدت بعد ذلك إلى نفسى وذكرت الكرب والفارس، وجعلت
أفكر فى طريقة أحمل بها من يستطيع الشراء من أهل القرية على
شراء سلعتى، فتذكرت الباعة فى وطنى ماهوش ينادون على سلعهم
بالأسجاع والنفقات المطرية، ويصفونها وصفاً شعرياً يحببها إلى
الشارين. فجعلت أنادى على الكرب وأتغنى به وأستعير له كثيراً
من صفات الزهر والعطور والحريير. ولست أدري ما الذى حمل أهل
القرية على أن يجتمعوا حولى ويضحكوا كلما سمعوا ندائى، كأننى
كنت أناديهم لأضحكهم. ومضى وقت طويل وأنا أسير والناس
يسيرون من ورائى نساء وصبية وشباناً ولم يتقدم أحدهم للشراء،
حتى يئست وعزمت على الرجوع خائباً. ولكنى فكرت فى ثورة
صاحبى إذا عدت إليه بغير طعام، فنظرت إلى الجمع الذى كان
حولى وسكت عن الغناء، وقلت لهم بكلام ساذج: «ألا يريد أحد فى
هذه القرية أن يشتري كرنبة منى؟» فضحكوا جميعاً واقتربت منى
عجوز فقالت ضاحكة: «فعل الله لك. هل تريد بيعاً؟ لقد كنا نحسب
أنك تغنى إعجاباً بخضرك» فأجبتها منكسراً: «أسأل الله لك السقر

يا أماه، لم يكن بى إعجاب بل لقد ضقت بها وثقلت على كاهلى.
وإنما غنيت ليشترى الناس منى على عادة قومى فى ماهوش». فضحكت وضحك سائر من حولى وتصايحوا فيما بينهم: «غريب غريب!» وتواثبوا إلى من كل ناحية يقلبون ملابسى ويجسونها ويمسحون أيديهم عليها، وجعلوا يمطروننى بالأسئلة عن وطنى ومتى جئت وإلى أين أذهب، ولم أستطع أن أجيب عن شىء من ذلك كله بل شعرت بضيق شديد وصحت بهم فى شىء من الضجر: «هذه كرنبات فاشتروها منى بدريهمات أشتري بها طعاماً». وكأنهم سمعوا منى مزاحاً فصاحوا ضاحكين وقالت إحدى البنات: «غن لنا مرة أخرى ياعم». فغضبت ونظرت إليها فى ألم وكدت أصيح صيحة أخرى مؤنباً، ولكنى سمعت من ورائى صوتاً ينادى: «عقارم!» فعرفت الصوت ونظرت إلى ورائى فى فزع وأردت أن أشكو إلى الفارس ما لقيت، ولكنى رأيت وجهه يتحرك بالغضب، ورأيت شاربه يهتز كشارب القط إذا كشر، ولم أدر إلا وقد اقترب منى وأخذ الكرنب فألقاه على الأرض فى عنف، فتحطم وتطايرت أجزاؤه وتناثرت أوراقه الرطبة البيضاء، ثم صاح فى وحشية: «ما هذا؟». وما كاد الجمع يراه حتى انفض من حولى، فجرى النساء والصبية وهم يصرخون، وانصرف الرجال يتلفتون إلى وراء. فقلت له وقد غضبت: «ماذا؟» فصاح بى صيحة لم أفهم معناها ثم مضى إلى أقرب منزل فطرقه وخرجت إليه امرأة فأمرها أن تحضره

طعامًا، فأسرعت داخلة إلى الدار، ولم تبطئ حتى جاءت إليه بما عندها من خبز وجبن وبيض. وما كان أشد عجبى عند ما رأيت المنازل المجاورة كلها قد فتحت، وأقبل الناس منها يسعون زرافات ووحدانًا، وكل منهم يحمل شيئاً فى يديه أو فى صفحة أو قرطاس، وأخذت أجمع ما يأتون به حتى لم أدر كيف أحمله. وسار الفارس فى كبرياء إلى خارج القرية عائداً إلى ظل الشجرة وسرت وراءه أحمل ما استطعت حمله فى يدي، وسار الناس من ورائنا فى موكب يحملون ما جاءوا به حتى بلغنا مجلسنا، فالتقوا ما معهم وهم يتأدبون ويظهرون المودة. ثم ساروا سراعاً كأنهم يلتمسون النجاة. والله لو كنت وحدى لقضيت النهار كله فى سير ولعدت آخر النهار بمعدة خاوية.

أكلنا هنيئاً ثم جلسنا نتسامر، وقد عادت أخلاق صاحبى إلى الموادة ولم أتمالك أن سألته: «أيعرفك أهل هذه القرية؟ إنهم قد أكرموك حقاً». فقال وهو يضحك: «إنهم لا يعرفون إلا هذه الريشة». ثم طأطأ رأسه وهز ريشته الزقاء. وقال وهو يبتسم ابتسامة هادئة: «إذا أردت أن تعيش فاعرف كيف تعيش. خذ ما تستطيع قسراً. اعرف كيف تأمر ثم تملأ جيبك. املأ جيبك ما استطعت ثم سر رافعاً رأسك. خذ ضريبتك أنى وجدت إليها سبيلاً».

نعم هكذا الدنيا، وقد كانت هدايا المساكين منذ القدم ضريبة.

وبعد أن قضينا فى الراحة ساعة قمنا إلى السير، وأبيت أن أركب عندما سألتنى الفارس أن أفعل، بل شكرته وسرت على قدمى أتأمل ما قاله لى، وقلبت نظرى فى الريف وما فيه من جمال الطبيعة، وتمنيت لو كان أهل القرية بعض حيوان الحقل. لقد كانت قطعان الماشية ترعى فى المروج الأخضر سمينة بيضاء ناصعة أو صفراء فاقعة، تسر النظر بما عليها من كسوة نظيفة حباها بها الله جل وعلا.

ومر وقت طويل وأنا سائر أفكر فيما يقع عليه بصرى، حتى سمعت صوت صاحبى ينادينى، فنظرت إليه فرأيتة يشير بأصبعه إلى الأفق. وكان النهار قد انقضى إلا أقله، وأقبل الليل وأخذ النور يتضاءل، ولاحت على الأفق مدينة كأنها صورة رسمها صانع ماهر فوق طومار كاغد. وبعد قليل لمعت الأنوار تبص خافتة من بعيد منشورة على الأفق فى غير نظام. وخفق قلبى عندما سمعت الفارس يصيح وهو يشير إلى المدينة: «جانبولاد».



لم تدع لى الأيام الأولى من مقامى فى جانبولاد فراغاً للتفكير ولا للترفيه عن نفسى ، فقد كنت فى شغل شاغل من أمر حياتى الجديدة، وما ينبغى لى فيها من وسائل العيش. فأتخذت لى مسكناً فى جوار صاحبى الفارس غرفة وفناء واسعاً تسطع فيه الشمس من شروقها إلى غروبها. وأعددت فيه القليل من الأثاث، ولم أنس أن أبعث مع بعض التجار خبيراً يطمئن أهلى فى ماهوش، وأرسلت إليهم شيئاً من الرزق الذى أصبته.

ولما استشعرت الاطمئنان إلى حياتى الجديدة، أخذت أدير عينى فيما حولى وأتحسس أحوال البلد الذى حللت فيه. وجانبولاد مدينة عظيمة تجتمع فيها خيرات ريف خصب. وكانت من قبل تراثاً لعلاء الدين سلطان ماهوش، ثم نزعها منه تيمور فيما نزعها من أرض السلاطين.

مسكين علاء الدين، إننى لا أنكره إلا ذكرت الدين والمكرمات جميعاً. ولكن أبر السلاطين ليس فى هذه العصور أقواهم وأعظمهم، لأن تيمور لم يدع عظمة لغير سفاح الدماء. وعليه ابنة علاء الدين، إن قلبى لم يخل يوماً من صورتها، وما زالت تؤنس أحلامى فى حلى وترحالى.

أيها القلب اتند فما من حيلة لك إلا أن تقنع بأطياف الأحلام!
وما علية مما أنت فيه؟ ما هي إلا صورة، فلتنقع بصورتها
ولتجعلها نجية وحي العلا.

قضيت الأيام في هذه المدينة أتعلم كل يوم معنى جديدًا. من
غريب أمر الإنسان أنه يرى في الأجنبي ما لا يراه في البلد الذي
ولد وعاش فيه. فكل ما يحيط بالإنسان في بلده مألوف معروف،
مع أنه قد يكون للأجنبي عجبًا من العجب.

ولست أقصد هنا أن أصف أهل جانبولاد لأبدي فيهم رأيًا،
فمن ذا الذي نصب بعض الناس ليحكموا على البعض؟ لا بل إنى
أحس في نفسي أشد الحاجة إلى عطف الآخرين على وتغاضيه
عن عيوبى، فلست بمن يتلمس العيوب أو يعد السقطات. علمتني
الحياة أن آخذ الناس كما أراهم، فهكذا خلقهم الله وهكذا أراد لهم
أن يعيشوا. إنهم من طين الأرض لا يستطيعون أن يكونوا من ملائكة
السماء، وما أحرانا إذا رأينا العيوب أن يزيد عطفنا على أصحابها
ورثاؤنا لهم، لأننا من البشر نحس ثقل الطين في طبعنا. وأكرم
ما يستطيعه إنسان أن يملأ قلبه بالعطف على المخطئ والآثم، لأن
هؤلاء أحوج إخوانه في البشرية إلى عطفه.

ومع هذا كله فالحسن والقبح أمران يتوقفان على تقدير كل
فرد، وقد يكون الشيء حسنًا في عين إنسان فإذا به نهاية القبح
في عين إنسان آخر.

ولقد كدت أعدل عن أن أقص حرفاً واحداً في وصف جانبولاد، لولا أنني أردت أن أتحدث ببعض ذكريات حياتي فيها، وأتأمل مناظر الماضي، كما يتأمل مناظر السهل من سعد في الجبل إلى قمته. فإذا لم يجد في تأمله درساً يستفيده لم يخل من متعة الذكرى. كان صاحبى الفارس أول من عاشت من أهل المدينة، وقد وجدت على طول الزمن أنه في دخيلة نفسه إنسان. عرفت فيه أموراً كثيرة دلتني على أنه من أرق الناس نفساً ومن أليّنهم شكيمة. واسمه «طوطاط» ويعرف بين العامة باسم «وطواط»، فإن لأهل «جانبولاد» عادة في تسمية حكامهم أسماء يخترعونها، أو يحرفونها عن أسمائهم، أو يفيضون عليها بعض أفاويه من فكاhtهم. وأهل جانبولاد من أحلى الناس فكاهة، وهذا مما حبيبهم إلى، فالفكاهة أولى علامات الإنسانية. وهم يجدون في فكاhtهم ترفيحاً كثيراً مما يعانون من مشقات الحياة. وخواص جانبولاد لا يخشون من عامتها شيئاً هو أشد عليهم من هذه الفكاهة الحلوة اللاذعة.

وكان صاحبى الفارس لا يملك في بيته أمراً ولا نهياً، لأن له في بيته امرأة تسيّره وهو بذلك سعيد، لا يرد لها أمراً، ولا يفكر معها في شيء، بل يترك لها قياده حتى يفرغ لما هو أجدر بعنايته شأنًا. فهو إن كان في طرق جانبولاد أسداً لم يزد في داره على أن يكون حملاً وديعاً.

وكان في «طوطاط» إخلاص ومودة، حتى كدت أعدده صديقاً. بل لقد كان له علىّ فضل فيما بعد لن أنساه له أبد الدهر. ولكنه رجل صاحب نزوات تثور به بين حين وحين، إذا ثارت فلا يدرى المرء إلام تنتهى به. وقد اعترته نزوة من هذه ونحن معاً في داره وكان قد شرب بعض النبيذ وطرب ثم عربد، فعزم على أن أشرب معه. وشكرته معتذراً فألح علىّ، ثم بالغ حتى حلف بالطلاق لأشربن معه، وكان ذلك على مسمع من زوجه. فوقع في حيرة لم أدر معها ما يجب على أن أفعل. فهل أعصى الله وأقارف إثم الخمر، أم أطيع الله وأفرق بينه وبين امرأته؟

ولم يكن التفريق بينهما هو الذي يزعجني، لأن أكبر ظني أنه كان خيراً له لو تزوج أخرى تكون أليّن منها جانباً وأرفق به في التعتة. وإنما الذي حرت فيه هو التماس طريق الخلاص من بيته إذا أنا لم أنزل على حكمه وأبر له يمينه، فإن الزوجة ما كانت تتركني أخرج من دارها سليماً. فاضطرت بعد التأمل إلى أن آخذ الكأس من يده، وحسبت أن هذا يخرجني من الحرج. ولكنه أبى وأصر على أن أنادمه سائر الليلة، ولم يجدني معه اعتذار بأمر من أمور الدين أو الصحة، فكنت كلما أبديت له عذراً قطع علىّ السبيل بيمين جديدة. وجعل يعجب مني إذ أريد أن أعيش في جانبولاد بغير أن أتمتع بمباهج الحياة، وحلف لي أغلظ الأيمان أنني أكون ضحكة بين الناس إذا أنا أسايرهم في حياتهم. فأخذت الكأس

ورفعتها إلى فمى ومصمت منها مصة أظن الله يغفرها لى ، فقد قصدت بها أن أبر له يمينه. ثم قمت مسرعاً فذهبت إلى الخلاء وادعيت أن برداً أصابنى ، حتى إذا ما صرت خارج القاعة قذفت بنصف ما فى الكأس ثم عدت لأنادمه. وكلما رأيته ينظر إلى رفعت الكأس نحو فمى وقمت مرة أخرى إلى الخلاء.

ولم يطل بى الخوف منه بعد قليل ، فقد شغله عنى طربه عندما دب الشراب فى دمه ، وكأنى به قد تمنى لو أمسكت عن مشاركته بعد ثلاث كؤوس ، حتى لا أنقص ما بقى له فى الدن ، ولهذا رأيته لا يصبر على إعطائى كأساً رابعة عندما أظهرت له قليلا من الامتناع. وكان فى تلك الليلة مدهشاً. كانت أقل لفظة أفوه بها تبعثه على أن يتمرغ على الأرض من شدة الضحك. وقد صرت عنده منذ تلك الليلة من أحب الناس وأكرمهم. فصار لا يطيق البعد عنى ، وكلما رآنى مقبلاً استعد للضحك ، فلا أكاد أنطق بحرف حتى ينفجر مقهقهاً كما يعطس الإنسان إذا قربت من أنفه النشوق.

ولم يكفه هذا ، بل أذاع عنى بين أصحابه جميعاً أننى نديم حلو الفكاهة شهى الأحاديث ، وأضاف إلى ذلك قوله إننى إذا شربت ثلاثاً كنت أبرع الناس فى المنادمة. سامحه الله ، لقد كلفتنى مقالته هذه مشقة كبيرة فيما بعد.

ومن أعجب العجب أن كل من سمع منه هذا لم ينتظر حتى يحكم لنفسه ، بل اعتقد صدقه بادئ ذى بدء. فصرت بعد ذلك لا أنطق

بحرف فى مكان حتى تتجاوب أصداء الضحك من كل أركانه. فلما رأيت هذا تعمدت أن أنطق بالكلام الذى لا يحتمل الفكاهة، بل لقد تعمدت أن أنطق بالفاتر البائخ من القول، ومع ذلك فما كنت أرى الضحك يزداد إلا علوًا الناس، قلما تجد فيهم من ينظر بعينه بل يسيرون على هدى آذانهم.

ومهما يكن من الأمر فقد رضى نفسى على تحمل نزوات صاحبى، لأن حسناته تغلب السيئات، وهذا حسبه من الإحسان. وكنت أجد متعة فى مصاحبته، فجلنا معاً فى طرق جانبولاد، وزرنا حدائقها ومساجدها، وأسواقها المزدهمة وأحياءها الفقيرة وأحياءها العامرة بالقصور المنيفة، فوجدتها مثل سائر بلاد الأرض، يسكنها الناس مجتمعين لكى يمكر كل جار بجاره. هذه حقيقة أبدية ليس فيها جديد فى جانبولاد. وكنت إذا سرت فى صحبة «طوطاط» أسلم من العدوان، لأن الناس كانوا إذا رأوه فسحوا له الطريق، حتى فى أشد الأسواق زحمة، مع أنى كنت إذا سرت وحدى لا أنجو من الدفع والخبط، وكثيراً ما أصابتنى ضربات من العصى إذا مررت بقوم يتعاركون. وقد كنت ذات مرة أسير وحدى فى طريق خالية، فسمعت قوماً يتخاصمون ويتقاتلون، فاستغاث بى أحدهم، فذهبت لكى أعين على السلام والوثام، وشغلت بسماع حجج الخصمين ووزنها، وتأمل مواضع الحق فيها، فلما فرقت بين المتخاصمين بالحق، وسرت عنهم راضياً، تلمست رداى فلم

أجده. فتظرت ورائي وحولي فلم أجد منه شيئاً، كأن الأرض قد ابتلعتة. ورجعت إلى مكان المعركة فلم أجد أحداً هناك سوى شيخ يدب على عصاه. فلما رآني أبحث سألتني عن الخصام فيم كان. فقلت له إن القوم كانوا يتخاصمون على رداي فأخذوه. فنظر إلى الرجل في عطف ثم مد يده إلى وسألني «حسنة»، فأعطيته ما كان معي وهو قليل، فنظر إلى ما أعطيته فاحصاً، ثم انصرف عني وهو يغمغم شاتماً. هذا يحدث لي إذا سرت وحدي، ولكنني كنت إذا سرت في صحبة «طوطاط» رأيت على وجوه الناس إجلالا وأدباً، وقد سألته في ذلك مرة فضحك وقال: «من أراد صلاح قوم أخافهم». وفي هذا حق كثير بغير شك، فقد خلق الله في الإنسان غرائز كثيرة، والخوف من أعجبها أسراراً. فهو يتشكل في شتى المظاهر كما يتصور الجنى في صور الإنسان والحيوان. فالخوف يتخذ حيناً شكل الحب، وقد يتخذ شكل الإجلال أو الولاء أو الأدب، وهو يحمل كل هذه الأسماء مع أنه ليس في الحقيقة سوى الخوف. ولكن هذا الخوف لا يطغى على الطباع إلا إذا انعدم الحب الصحيح، والخير كله لا يكون إلا في الحب، ولا تكون الكرامة ولا الصلاح ولا الإنسانية إلا في المحبة.

وقد أطلعني صاحبي «طوطاط» على حقيقة فذة في جانبولاد لم أشهد مثلها في بلد من البلاد التي رأيتها. ذلك أني رأيت بعض بيوتها تحمل فوقها أعلاماً مختلفة الأعداد، فبعضها يحمل عشرة، والبعض يحمل عشرين أو أكثر، والبعض لا يخفق فوقه إلا علم

أو علمان. وكانت البيوت التى لا تعلوها أعلام بيوتاً ضئيلة حقيرة المنظر. فوقع فى نفسى من ذلك شىء من العجب، فعهدى بالأعلام أن تكون زينة يقيمها الناس إذا أرادوا احتفالاً بمرور السلاطين فى المدينة. وسألت صاحبى عن سرها فقال فى دهشة: «ألم تر هذا من قبل؟» فقلت له: «لعلى رأيته ولكنى لم أتنبه إليه».

فكشف لى عن ذلك السر الخطير الذى تمتاز به جانبولاد. فقال: نحن هنا لا نتساهل فى أمر من الأمور. كل شىء هنا مقرر على نظام مرسوم. هكذا يحكم تيمور دائماً.

فانتقل بى خاطرى فجأة إلى الغابة التى رأيتها فى طريقى وتذكرت صرخة الفريسة المسكينة.

وقلت لصاحبى فى حماسة: لا شك فى أن النظام أساس العمران. فقال وهو يرفع صدره ويميل برأسه فى كبرياء: - هنا طائفتان تحكمان جانبولاد: الأولى نحن. ثم أشار إلى نفسه إشارة زهو. فقلت فى هدوء: طبعاً.

فقال: ولكل أمير منا علامة تميزه. فمننا صاحب الريشة ومننا صاحب الريشتين ومننا صاحب الثلاث.

ثم توقف ليرى أثر كلامه على وجهى.

فقلت وأنا أنظر إلى ريشته: نعم صاحب الثلاث.

فقال مبادراً: ستكون لى بعد قليل ريشة أخرى. لا شك أن تيمور يزيدي ريشة إذا عاد من حربه مع بايزيد. وسيعود بعد قليل. ألم تسمع منذ أيام أنه أسره ووضعه فى قفص من حديد؟

فخرجت منى صيحة: قفص من الحديد؟
فقال باسمًا: نعم. وسيأتى به إلى هنا لنراه فى قفصه، ثم يذهب
به بعد ذلك إلى سمرقند لكى يجعله فى طليعة موكبه العظيم.
ثم نفخ صدره وعبس.

فقلت بغير وعى: بايزيد فى الموكب؟
فصاح بى غاضبًا: نعم إنها آية لمجد تيمور.
فلم أشأ أن أجادله فى هذا الأمر فقلت: نعم.
فقال وكأنه نسى ما كان يحدثنى فيه: سينظر الناس إلى عاقبة
من يقاوم تيمور. هو الأسد الذى لا يقاوم والنسر الذى لا يسامى.
وليس لأعدائه إلا القهر والفناء.

فهزرت رأسى وفى حلقى غصة ولم أملك جوابًا، وضاق صدرى
بأنفاسى، وعادت إلى صورة الغابة.

فقال صاحبى مستمرًا: فإذا عاد تيمور إلى هنا رأينا عدوه فى
القفص وشفينا النفوس من كبريائه المحطمة.

فقلت له: إنك تكرهه. هل رأيته؟

فرفع حاجبيه وقال: ولم أراه؟

فأردت أن أبعد به عن هذا الحديث فقلت له:

— وإذا عاد تيمور وضع لك هنا ريشة أخرى؟

وأشرت إلى قلنسوته. فتذكر ما كان فيه من الحديث وقال: نعم.

ريشة أخرى هنا.

فقلت مشجعاً: وثالثة ورابعة.

فضحك حتى تراجع إلى الوراء، وقال: «إنما هي ثلاث ريشات ليس بعدها إلا الأذنب». فصحت ضاحكاً: الأذنب؟

فقال ضاحكاً كذلك: نعم ذنب واحد أو اثنان أو ثلاثة. هؤلاء هم أعلى الفرسان. ليس فوقهم سوى تيمور.

فقلت بغير تفكير: إذا فالأذنب في القمة.

فقال موافقاً: ثلاثة أذنب ليس بعدها إلا تيمور.

فقلت: وماذا يحمل تيمور العظيم. حدوة فرس؟ سيف؟ سن فيل

فقال ضاحكاً من جهلى: لا، بل هي عمامة كبيرة.

ثم نظر إلى عمامتي وقال: أكبر من هذه.

فشعرت بشيء من الكبرياء وضحكت قائلاً: ثوب آخر يجعلها

كعمامة تيمور.

فضحك صاحبي كعادته إذا سمع كلماتي، وضرب بيده على كتفي

وكأنه نسي كل الحديث الذي كان بيننا فقال: سيكون موكبه عظيماً

بغير شك. وسيعطيني بعد ذلك ريشة أخرى.

فخشيت أن يعود إلى وصف سيده العظيم، فقلت له مذكراً:

هؤلاء هم أصحاب الريش والأذنب. هؤلاء هم الطائفة الأولى.

فقال وقد تذكر: نعم وأما الطائفة الثانية فهم أصحاب القدور.

فصحت ضاحكاً: قدور فوق الرؤوس؟ مساكين!

فعاد إلى الضحك وقال: لا لا! بل هي قدور ملأى بالذهب الأصفر الصافي. كلما جمع أحدهم قدرًا ختمها ووضع على داره علمًا جديدًا يدل على أن قدوره الذهبية قد زادت واحدة.

فهزرت رأسي وقلت كالحلم: قدور ملأى بالذهب! وأطرقت أفكر في هذا النظام العجيب. فما أغلى هذه الأعلام التي لا يرفع أحدها إلا إذا كان تحته قدر من الذهب. وذهبت بى الأفكار مذاهب شتى في تصور حال جانبولاد، حتى هزنى صاحبي وقال لى: «انظر إلى هذا المنزل» وأشار إلى بيت على يساري. فوجهت نظري إليه فاترًا فرأيتَه قصرًا عظيمًا تلمع جدرانه، وتبتسم بساتينه. ورأيت فوقه خمسين علمًا تحفق في الهواء في مرح وكبرياء. وقال «طوطاط». «هذا بيت صاحب السيف. كلمة واحدة منه تكفى لأن تطيح الرأس عن الجسد فهو صاحب الأعلام الخمسين. قاضى جانبولاد».

فاعترتنى قشعريرة من سماع هذا القول، وجعلت أفكر في أمري وأمر الناس، وموضعي في هذا البلد الذى تكفى فيه كلمة من صاحب الأعلام الخمسين لأن تطيح الرؤوس عن الأجساد ولكنى ما لبثت أن هدأت نفسى فإنى جئت إلى جانبولاد لاجئًا، ولا ينبغي لى أن أتكلم ولا أن أناقش، فإذا لم تعجبني هذه الحال فباب المدينة مفتوح أستطيع أن أخرج منه إلى حيث شئت. ولم يكن أولى بى من أن أضع لسانى بين فكى وأطبق عليه شفتى. وعند ذلك تبين لى

ما يعتري الغريب من الذلة. ولو كنت فى ماهوش لما رضيت لنفسى إهدار الكرامة، فإنى كنت هناك أتكلم وأنتقد وأسخر أحياناً، ولم أسمح لأحد أن يكلم فمى ولاحت لى الحياة فى ماهوش عند ذلك أحب حياة على الأرض، واشتد حنينى إليها وأطرقت حزيناً أستعيد ذكراها.

ولا حظ صاحبى وجومى وإطراقى فقال لى: أراك تعبت!
وكنت قد تعبت حقاً فقلت له: صدقت.

فأشار إلى مكان مزدحم فى جانب السوق وقال: هلم نسترح قليلاً.
فترددت قليلاً، فما كان ينبغى لى أن أجلس على قارعة الطريق فإن هذا مذهب للمروءة.

ولكن صاحبى مضى فى وجهته حتى جلس، وأخذ يصفق بيديه فجلست معه ونظرت حولى أدير عيني فى الجلوس، فلم أر فيهم شيئاً يستحق التأمل. كانوا جميعاً جالسين بعضهم مسترخ فى صمت وبعضهم يتخاصم فى صخب، فملت على «طوطاط» وقلت له:
- أليس فى المدينة من يرى فى هذا النظام رأياً؟

فقال فى دهشة: ماذا تعنى؟

فقلت: أعنى أن جانبولاد مدينة عظيمة، وفيها خلق كثير لا أعلام لهم ولا ريش. فما حظ هؤلاء منها؟

فقال فى بساطة: من تقصد؟ هؤلاء العامة؟

فقلت منكسراً: نعم، من لا ريش لهم ولا أذنان مثلى.

فقال ضاحكاً: هؤلاء قد عرفوا كيف يصمتون.

فطعننى كلمته طعنة شديدة. وخيل إلى أن عذاب الحميم نفسه
 أهون على من الإقامة فى بلد ليس لى فيه إلا أن أصمت. وجاء عند
 ذلك خادم المكان يحمل القهوة. وكنت أحبها فأقبلت عليها أرشفها،
 وشغل عنى صاحبى بمساومة بعض الباعة الذين جاءوا يعرضون
 سلعهم يحملونها فى أيديهم أو فوق رؤوسهم، وكانت مساوماته أشبه
 الأشياء بالنضال، حتى لم يخل بعضها من الدفع باليد والسباب. وكان
 الباعة رجالا يستطيع أحدهم إذا شاء أن يدير ساقية بزنده، ولكنهم
 كانوا لا يحملون من السلع إلا يسيراً لا يزيد ثمنه على دريهمات.
 ففهمت عند ذلك السر الخفى. فهمت كيف يرضى العامة فى جانبولاد
 بأن يقيموا فيها خاضعين، ويضعوا ألسنتهم داخل أفواههم. فليس
 بهم من حاجة إلى الكلام لأنهم فى شغل عن ذلك بهم اقتناص الرزق
 الضئيل. وجمع صاحبى كومة كبيرة مما اشتراه من أصناف كثيرة
 مختلفة الألوان ولم يبق له إلا أن يشتري ليموناً. فتنبهت على صوته
 وهو يشاحن البائع ليأخذ منه ليمونة عاشرة، فلما سخا له البائع بها
 أعطاه دانقاً ثم التفت إلى وقال: أف لهؤلاء الباعة ما أشد لجاجتهم!
 ولما رآنى مشغولاً عنه هزنى بيده وقال: أراك غارقاً فى تفكيرك.
 ثم أخذ يجمع السلع ويضعها فى منديل كبير ولكن المنديل
 لم يتسع لها، فقلت له باسمًا: هذا حمل كبير.
 فقال وهو يغمز بعينه: عندى الليلة بعض أصحابى. وحبذا
 لو كنت معنا.

فتذكرت الليلة التي عربد فيها على وفهمت من غمزة عينه أنه يشير إلى الكؤوس الثلاث التي ظن أنني شربتها، ولم أجد جواباً أرد به فاستمر قائلاً:

– هم جميعاً من أصحابي المقربين ويسرهم وجودك بينهم. لقد سمعوا عنك وهم يحبون أن يتمتعوا بحديثك. وعلى فكرة – هم جميعاً من أصحاب الأعلام وليس أولى بك من مصاحبتهم. ومال على هامساً: لا تبعد عن مجالسة أصحاب الأعلام إذا شئت أن تكون لك أعلام فى جانبولاد.

فأثارنى قوله وقلت: «ما هذه الأعلام التى جعلت جانبولاد لها كل هذه القيمة؟ وما هذه القدور المختومة التى فى باطنها الذهب؟ إنها لا تزيد على قدور مملوءة بالرمل أو الطين ما دامت مقفلة». فضحك «طوطاط» حتى كاد يستلقى على ظهره ثم قال: – سيتغير رأيك إذا أصبحت من أصحابها.

فقلت فى عناد: وما الذى يشق على فى ملء عشرات من القدور بالحصى. إن قدرًا من الخزف لا تزيد على الأخرى إذا كانت مختومة.

فعاد إلى ضحكه وقال: لن تستطيع.

فقلت: وما الذى يمنعنى؟

فقال وهو لا يزال يجمع بضاعته: الذى يمنع من السرقة.

فقلت: ولكن السرقة جريمة.

وكان قد قام ونادى رجلا يسير أمامه. فأمره أن يحمل له بضاعته، فجمعها الرجل فى حجر ثوبه، ونظر صاحبه إلى فى عجلة وقال: «ستكون وليمة مريحة، وأرجو أن تؤنسنا بصحبتك». وكأنه نسي كل الحديث الذى كان بيننا فسار وسرت معه، وجعل يحدثنى عن صنوف الطعام التى يعدها لوليمته، حتى بلغنا المنزل فاستأذن وسار إلى داره وهو يغنى، والحمال يزحف من ورائه بحمله الثقيل.



قضيت ليلتى فى أحلام متعاقبة عشت فيها مع الأحبة فى ماهوش.
 أى وطنى الحبيب الذى قسا على! إنك لا تزال فى قلبى مع كل
 قسوتك، وكلما مرت بى الأيام عرفت ما كنت أجهل من فضلك. لقد
 هاجرت من وطنى لأننى لم أجد فيه مكاناً يرضينى، ولأننى لم أجد
 فيه رزقاً يغنينى. ولكنى علمت بعد أن وجدت الرزق فى جانبولاد
 أن وطنى كان يمنحنى ما هو أثمن من كل مال وأطيب من كل رزق:
 الكرامة والحرية، وهما لا يقومان بمادة هذه الحياة كلها، فواحر
 قلباه! ورأيت فى حلمى كل الأحبة: رأيت ولدى عجيباً وابنتى
 جميلة، ورأيت صديقى أبا النور. ثم رأيت مع كل هؤلاء عليه. عليه
 ابنة علاء الدين التى ملأت قلبى حباً ونوراً. وحدثتها وبثثتها
 لوعة الفراق وناجيتها بأشجاني الثائرة وعاتبته عتاباً طويلاً.
 عاتبته فى حلمى كأنها هى التى هجرتى وخلفتى وحيداً. فلما
 قمت فى الصباح وجدت قلبى ممتلئاً بها. لقد كانت فى ماهوش
 تعيش فى قصرها وحوله الحراس والحجاب، لم أستطع يوماً أن
 أدنو من أسواره. ولكنها مع ذلك كانت دائماً قريبة منى. قريبة
 لا يفرق بينى وبينها حجاب لأنها كانت فى قلبى. كانت صورة
 وكانت خيالاً. وما حاجتى إلى غير صورتها وخيالها؟ إننى لم أبال

الجسم الذى يذوى ويمرض ويضعف ويزول؛ فقد كانت روحى التى تتعلق بها وتجد السعادة فى تأمل كمالها.

قمت فى الصباح كعادتى فذهبت إلى المعسكر وصليت بالجنود، ثم خرجت أسير فى الطرق وأنا أفكر فى مكانى من هذا الوطن الجديد. هذا البلد الذى لا كرامة فيه إلا لأصحاب الأعلام والريش والذى تحكمه القدور المלאى بالمعدن اللامع. ولم يكن بى من حقد على أحد؛ فلست أنفس على الناس أن يفوزوا بالذهب كما يشاءون، والذهب عندى لا يزيد على سائر مادة هذا الطين. ولو كنت يوماً راقداً فى ضوء الشمس أتأمل فى خلق الكون وأنا أنظر إلى السماء الصافية وأهيم مع أحلامى فى الملكوت، ثم رأيت خمسين قدراً مלאى بالذهب تهوى فى الظل على بضع خطوات منى لما تحركت من مرقدى لأذهب إليها. وقد كنت منذ عقلت لا أطمع من هذه الدنيا فى أكثر من الرزق الذى يقيم الحياة، لأنى أخذت نفسى بما علمت، والذهب فى آخر الأمر لن يصاحب الناس إلى القبور. سيخلف الناس الذهب كما يخلفون كل شىء وراءهم بعد الحياة، ولم يكن الذهب سبيل السعادة فى دار من الدارين. فليس بى من حقد أن يسعى إليه الناس ويستأثروا به، وحسبى من الدنيا ما أصيب من رزقى الضئيل. ولكل الذهب شىء والكرامة شىء آخر، ولا علاقة بين هذه وذاك. فالكرامة حق وهبه الله للناس منذ خلقهم ناساً. فإذا كانت جانبولاد تهب لى القوت لكى تسلبنى هبة الله الثمينة فلا مقام لى فيها.

ولكن... أواه من شعور العاجز بعجزه! فكرت فى أين أهاجر إذا تركت جانبولاد. هذا ما شغل قلبى منذ تلك الليلة فى إصباحى وإمسائى وفى نومى وصحوى، حتى ضاق صدرى وكاد يضطرب عقلى. وأخيراً بدا لى رأى وجدت فيه من ضيقى مخرجاً. عزمتم على أن أعيش فى عالم أسعى فيه إلى الخير، وأبذل فيه كل ما أستطيع، وأهب فيه للناس من قلبى ومن عطفى، فلن أحس فى مثل هذا العالم ذلاً ولن أبالى من أمور الناس همّاً. فعزمت على أن أقف حياتى كلها على خدمة المساكين فى جانبولاد، وما أكثر مساكين جانبولاد، هؤلاء الحفاة الذين ليس لهم من أمر وطنهم شىء إلا أن يصيبوا الكفاف من عيش زرى على ما يقومون به من عمل قاطع. استقر رأى على أن أكون خادماً لهؤلاء أعلمهم وأرفه عنهم وأواسيهم، ورسمت لنفسى خطة قمت على تحقيقها بغير تردد أو تسويف.

فكنت إذا فرغت من صلاتى وفرغ الجنود من تقبيل يدى عقدت لهم مجلساً قبل أن ينصرفوا، أحاول فيه أن أفتح صدورهم للرحمة، وأن أبصرهم بحياة الإنسان. وكثيراً ما كنت أرى فى أعينهم الدمع كلما لمست جانباً رقيقاً من قلوبهم، فكان هذا يملأ قلبى سروراً، وكنت أحمد الله الذى يفجر من الصخر ينابيع الماء الزلال، والخير لا بد أن ينتصر يوماً، والدمع الذى يثور فى العين مرة لا يضيع سدى.

فإذا ما انتهى درس الجنود نزلت إلى المدينة أقلب فيها نظري،
وكنت في كل يوم أجد فرصة جديدة أتخذ منها مطية إلى الخير.
مساكين أهل جانبولاد، كنت أمد يدي إليهم فتغنيهم وإن لم يكن
فيها شيء من الذهب. كم من كلمة طيبة يجود بها القلب فتغذي
الروح لا يقاس بها عطاء من فضلات الغنى. وكنت كل يوم أذهب
إلى المسجد الأعظم وأتخذ فيه مجلسًا إلى جوار عمود، فيجتمع
حولي من المساكين من يتعطش إلى الكلمة الطيبة. وفي هؤلاء كنت
أجد السلام والكرامة. كنت أحس أنني أصب عليهم مما في قلبي
وأضيفهم في حنايا صدري. وما كان أعظم ما نلت من السعادة في
أعقاب هذه الدورات! كنت أحس أن النور يجلو روحي، وأن الحق
يحل في كياني فيملؤه قدسية، فإذا بى لا أرى في الكون كله إلا
تسبيجًا وترتيلًا.

هناك بين المساكين كنت أرى الزهر يانعًا، وأشم العطر فياخًا،
وأسمع من أنغام السموات ما لا يدركه السمع، وأفهم من وحي العلا
ما لا يبلغه العقل. كان روحي يهيم ويكشف الغطاء عن الأسرار،
ويتلبس بحقائق الأزل، فلا اللفظ لفظ ولا الحس حس، بل الكون
أنا وأنا الكون. هناك بين المساكين سموت حتى أشرفت على
العالم الصغير، وعلى من فيه من الدُّبى المغرور: تيمور وجنده
من أصحاب الريش وأصحاب الأذناب، وجانبولاد وعليتها من
ذوى القدور والأعلام. وكنت أشير بأصبعي إلى الأنوار التي كانت

تتلاً في كل مكان أمام بصيرتي ، فيتطلع المساكين ويصدقون ،
لأنهم كانوا يؤمنون . علمت المساكين أن في الحياة ما هو أثمن من
الذهب ، وأسمى من السلطان ومن القوة ، وأن فيها من اللذة ما هو
فوق متعة الأجسام ، علمتهم أنهم يستطيعون الاستغناء عن كل قوة
وعن كل متعة إذا هم آمنوا بما هو أسمى وأعلى ، في حين أن الدبي
المغرور من أمثال تيمور يقضى حياته أسيراً في قيود من الطين
العفن لا يستطيع أن ينتزع نفسه منها .

وكانت الأوقات التي قضيتها مع تلاميذي في هذه الحلقة أحب
العبادات إليّ . وجدت فيها قرة العين ، وفزت فيها بمجمع اللذات .
فإذا ما انصرفت بعد ذلك إلى داري أقبلت على أوراقى وكتبي أقرأ
وأكتب وجعلت ما كتبته وقفاً على من يطلب العلم قرباناً إلى الله
سبحانه الذي علم بالقلم .

ولكني لم ألبث أن صدمت صدمة بددت آمالي .

كنت يوماً في مجلسي إلى جوار السارية أناجي خفي الأسرار
فإذا بي أحس شخصاً يقف عند رأسي ، ويضع يده على كتفي . فالتفت
نحوه لفظة قصيرة لعله أعمى ضل فعثر بي ، أو فقيراً جاء يقصدني ،
فإذا بي أرى فتى أسمر في حمرة ، قد أمال قلنسوته إلى يمين ،
وأبدى من تحتها طرة تلمع فوق الجبين . وقد أطال عارضيه . وزجج
حاجبيه ، ولف حول وسطه منطقة حمراء من الحرير ، فوق ثوب
أصفر من ديباج ، وهو قصير بدين ، يدرج كالدحروجة ، ويتميل
تياهاً وينظر متحدياً .

فقلت له لأصرفه عني: «هناك الله إلى سبيلك».

فقال وقد كشر عن نابه: «أما تعرفني؟».

فتظرت إليه فاحصًا، وصعدت فيه بصرى كرتين، فلم أتبين من يكون ولم يكن لي عهد برؤية مثله، فضاقت عند ذلك صدره وصاح بي: «أنا صاحب الباب وحاجب الحجاب! قم إلى القاضي ولا تبطئي عليه».

فوقع قوله مني موقعًا شديدًا. فالقاضي سيد من أصحاب الخمسين، وقد عرفت نفسي عزوفًا عن مجالس العظماء، فاستعذت بالله من الغرور، وظننت أن سيده قد سمع بي، وعرف ما أقدمه للعلم في سبيل الله، فأحب أن يظهر لي تجملاً، أو يبعث في طلبى تقريبًا وتلطفاً. وكنت لا أحب أن أفتح قلبي للغرور وإنما الأعمال لله وحده، وما كنت لأبتغي بها عند الناس رياء. وعزمت على أن أجعل بيني وبين السلطان سدًا، وهممت أن أرد الحاجب ردًا جميلاً، وأبعث معه إلى السيد العظيم دعوة خير أرجو أن تكتب له في صحيفته.

ولكن ما كان أشد عجبى عندما ناداني الفتى متجهماً، وأمرنى في جفاء أن أسرع إلى المجلس فإن لي فيه شأنًا.

ولم أفهم أي شأن يكون لي في مجالس القضاء، وليس لي في جانبولاد ما أنافس الناس فيه. فلم تكن لي تجارة ولا زراعة، بل هي صلاتي ودرسي، وكتابي وورقي، وإن كان لي رزق فيها فمما قسمه الله لي من عطاء لست فيه شريكًا لشريك أو عميلًا لعميل.

فقلت للحاجب فى هدوء: «هـذاك الله يا ولدى. لقد أخطأت فما أنا بمن يطلبه السيد العظيم» ثم هممت أن أعود إلى درسى، ولكنه نظ إلى مغضباً ثم صاح بى حائقاً: «أيها الرجل قم إلى القاضى فإنه ينتظرك، لينفذ فيك ما يجب عليه أن ينفذه من حكم العدل». فنظرت إليه وإلى حلقة الدرس، ونظر التلاميذ إليه ثم إلىّ، وطال النظر من بعض إلى بعض، حتى نفذ صبر الحاجب وكان قوياً فتياً يلمع رونق الشباب فى وجنتيه، فتقدم نحوى عامداً كأنه أراد أن يجرنى من الدرس قسراً. فلم أجد بداً من القيام طائعاً، فهؤلاء أتباع السلطان لا يعرفون تجملاً ولا ترفقاً. ولما رأيت من تلاميذى بوادر الغضب أشرت إليهم بالصبر والأناة ونظرت إليهم معاتباً، فما ينبغي لمن كان مثلى إلا أن يطيع ولى الأمر إذا دعاه.

وسرت إلى مجلس القاضى، وأنا أدير فى ذهنى كل حوادث الأيام والشهور، لعلى أذكر لنفسى سبباً مما يجر إلى ساحة القضاء فلم أجد شيئاً أعرفه، وحسبت الأمر كله خطأ لا يلبث أن يزول. ولما دخلت إلى المجلس رأيت السيد فى صدر المكان وله فم ضب وعينا أرنب، يخيم عليه ظل الهيبية، وترنق فى عينه الصرامة. ورأيت قلنسوته العالية من تحتها لحية تبلغ القبضتين. ورأيت ثيابه من الدمقس، وتحتة طنفسة من الإبريسم الحر، وقد رفع فوق رأسه الدرفس، ووقف الأتباع من حوله خشوعاً، يسلون السيوف ويبسطون أمامهم الأنطاع. فوقفت حيناً أنظر فى ارتياح، وأتقرب حركة فمه المدبب،

الذى يضم بين شفتيه لساناً فيه مصير الناس من سعد وشقاء، وتأمل عينية الخاويتين، ومنهما يطل القضاء. وتمثل لى ما كان فى مجلسه ذاك على مر الأيام، من سجن وتعزير، وغرامة وتشهير، وقلت فى نفسى أعوذ بالله من عثرات المقادير، وتقدمت نحوه باسمًا، وسلمت عليه محتفياً خاضعاً، ثم أردت أن أشكو إليه حاجبه كيف قطع درسى وروع تلاميذى، فإذا به ينظر إلىّ فى جمود، ويرفع يمينه فى جفاء، ثم قال بصوته النحاسى: مكانك أيها الرجل!

وكان الأرض قد مادت بى عند ذلك، أو كأن السماء قد مارت وتداعت، وعقل لسانى عن النطق ووقفت أنظر إليه وعيناي تطرفان، وأذناي تطنان. ولا حاجة بى إلى ذكر ما قال لى كله فقد كان مجمله أننى جنئت إليه متهمًا بأننى شربت الخمر وقارفت عظيم الإثم، ونادمت وفاكحت، وأعنت على المنكرات، وأنا رجل أدخل المساجد وأؤم فى الصلوات. وقد شهد علىّ بذلك من كنت أنادمه، وسمعه منه الشهود العدول، ورواه عنهم الشهود العدول. ثم أراد حرسه الله أن يتحرى العدالة وأن يبالغ فى التدليل، حتى لا يزل فى حكمة، فقال إنه قد بعث فى أثرى العيون وشهدوا أنهم رأونى أدخل إلى بيت صاحبى الفارس فى الليل، وأخرج منه بعد حين فى هيئة من لا شك فى امتلائه بالشراب، إذ كنت أسير مطرّقًا، وأجرر رجلى خائراً، وأدخل إلى دارى، لا ألتفت إلى ورائى ولا أرفع ذبول رداى.

فذكرت عند ذلك ما كان. جازى الله «طوطاط» فكم من مصاب
ينزل بالمرء من وراء عبت، وكم من دواهٍ جرّها على الناس حديث
إفك. منذ تلك الليلة التى نادمت فيها «طوطاط» لم يبق فى جانبولاد
مجلس شراب لا يذكر فيه اسمى، ولم يبق جمع طرب لا يتحدث
بفكاهتى وظرفى. فكنت أوصف بحسن المنادمة وطيب المحادثة،
والأدب عند الشراب والصبر على عريضة الصحاب، على حين
كنت فى المسجد أحلق مع تلاميذى فى السماء، وأتقرب إلى الله
بفعل الخيرات وخدمة الطلاب، وأعكف على التأليف والتصنيف
والعبادة والتسبيح.

وتقدم القاضى إلىّ بأن أدفع التهمة عن نفسى إذا استطعت، فإن
العدالة تناديه أن يكشف عن جرمى، وأن يحمى الناس من ريائى،
ولن يزال بى حتى أتوب بين يديه، بعد أن يوقع على العقوبة
التي أستحقها، ثم يمنعنى بعد ذلك من مخالطة الطلاب، وتلوّث
المساجد التي لا ينبغي أن يدخلها إلا المطهرون. فلم أملك من
القول إلا سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولم أستطع غير التسبيح والحوقة رداً ولا دفعا. ووقفت مبهوراً
كأن صخرة قد هوت على رأسى فشدخته، ونظر القاضى إلىّ من
تحت جفنيه كأنه أراد أن يخرق بنظراته صدرى، لينظر ما أخفى
وراء جدرانه من دليل على جرمى. ومن العجيب أننى بعد حين
أحسست فى نفسى تبديلاً، فزالت عني الحيرة وامتلاً قلبي ضحكا،

حتى كدت أقهقه فى وجه السيد العظيم، وأنقض على عثونه الطويل فأهزه وأجبهه ولكن نظرته كانت قاسية فهرب منى الضحك فى لحظة، ونظرت إلى الشرط والأتباع وهم يتربصون بى أمره، وينتظرون على إشارته، وبعد لأى نطقت فقلت: لقد فجأنى هذا الأمر يا سيدى، فيسر لى من الوقت ما أقدر فيه على جمع نفسى والإدلاء بحجتى. وكان حرسه الله يعرف أصول القضاء. فلم تأخذه فى عدالته الكبرياء، ولم يسرع إلى العقوبة قبل أن يبلغ العذر من الإعذار، وأنا بعد فى يديه إن لم يكن اليوم فعداً.

ونذهبت إلى الدار أحدث نفسى حائراً بائساً، لا أرى أمامى إلا همًا وظلامًا. وضافت جانبولاد فى وجهى، حتى فكرت فى الهرب منها متسللاً. وهاجمتنى المخاوف تعذبنى، فلم أجد منها خلاصًا إلا بأن أقوم إلى وضوئى، لعلى إذا اتجهت إلى صاحب الكون وجدت عنده السلام.



أتى الليل هاجماً على بظلامه فزادنى همًّا على همى، وشملتنى رهبة لا أستطيع أن أصفها. فقممت إلى صلاة المغرب، وما كدت أقيمها حتى سمعت على الباب طرْقاً، فزاد اضطرابى خوف أن يكون ذلك نذيراً بمصاب جديد، فقد خيل لى أنه لم يبق لى فى هذا العالم إلا سلسلة من الكوارث تتعاقب حلقاتها على مع الساعات. وفتحت الباب فى حذر ثم نظرت.

«أهو أنت أيها الحبيب؟». خرجت منى هذه الصيحة وأحسست أن شعاعاً من النور أضاء أمامى، عندما رأيت صاحبى وتلميذى كمال الدين.

جاء صديقى إلى دارى من قبل فلم يجدنى، وذهب إلى مجلس القاضى فدفَع عنه دفعاً قبيحاً، فعاد إلى دارى بعد أن قضى حيناً يهيم فى طرق المدينة مهموماً من أجلى. حمداً لله فإن المصائب تهون وإن جلت إذا وقف إلى جانب المرء صديق وفى. لقد اطمأننت عند ذلك على أنى أجد إلى جانبى رجلاً يصدقنى إذا تحدثت، ويواسينى إذا تعذبت، ويعيننى بمؤانسته إذا تحيرت. ولما دخلنا تَوْضاً صاحبى وصلينا معاً، ثم جلسنا نتحدث وأفضيت إليه بكل قصتى، وشكوت إليه عثرتى. والله هو من صديق! لم أجده يتزعزع

أو يشك، بل كان مصدقًا واثقًا، وجعل يذكرني بالله وما هو جدير به من نصرتي وجلاء غمتي، حتى أخرجني من نفسي. فما كان لي أن أبتئس أو أخشى لأن الله عالم بأمرى وهو معي ولن يخذلني. وأشار عليّ أن نذهب إلى القاضي لعلنا نحدثه في خلوة، فإنه إنسان وإن كان من أصحاب الخمسين، ولا بد لحجة البريء أن تظهر وإن ساءت الظنون. فقمنا معًا وكان وقت العشاء قد اقترب، فقلنا ندرك الشيخ فنصلي معه جماعة، ونتحرم إليه في كنف الصلاة. فلما بلغنا القصر وجدنا عنده حرسًا كثيرًا، من شرط وحجاب، وأعوان وغلمان، فلما رأونا نقصد الباب نظروا نحونا شزراً، وأقبل بعضهم على بعض يتهامون. فتجراً صاحبي وتقدم فسأل عن الشيخ، وطلب أن يسمحوا لنا أن نراه، وتعلل بالعلل فقال: «إن السيد يهم الساعة بالصلاة، ونحن نحب ألا تفوتنا بركة الائتتمام به». فضحك أحد الغلمان ثم نظر إلى رفاقه فتضاحكوا، وعاد فنظر إلينا واحداً بعد الآخر من أعلى الرأس إلى أخمص القدم، ثم مد يده إلى جبتي ووضع يده في خروقيها، وقال وهو يضحك: «خذوا زينتكم عند كل مسجد» فجذبت جبتي منه في شيء من الغضب وكدت أقذفه بكلمة حانقة لولا أن تدخل كمال الدين متوسلاً يقول: «إن الشيخ حرسه الله لا يضمن على مثلنا أن نصلي معه. فنحن فقيران نريد أن نتملى ببركته». فقام أحد الحجاب ودفعه في غلظة وقال له معنفاً: «انذهب إلى المسجد إن شئت الصلاة، وأما إذا أردت الاحتيال على الصدقة

فإننا لا نخدع عن مثلكما». فملأنى الغيظ وجرحت عزتى ، وكدت
أثور لولا أن جذبنى كمال الدين وهمس فى أذنى : « ليس لنا من
حيلة إلا الذهاب ».

وسرنا معاً مطرقيين حتى بلغنا المنزل فصلينا ، ثم جلسنا نقرأ
الأوراد ، وما هو إلا أن انصرفت إلى الله بقلبى حتى حل فيه السلام
ونسيت كل ما كان .

وكان وحيًا قد هبط علىّ فألقى فى روعى أن أذهب وحدى إلى
القاضى ، وأحسست فى نفسى يقينًا أننى إذا ذهبت إليه لم يستطع
أحد أن يقف فى سبيلى . فقامت واستأذنت صديقى ، ورجوته أن
يصبر حتى أعود إليه ، وسرت قدمًا برأس مرفوع وقلب يجيش
ونفس تتحفز حتى بلغت قصر القاضى . وما كان أشد عجبى إذ
وجدت الباب خاليًا ليس عليه حراس ولا غلمان . فدفعت المصراع
فانفتح ، وأدخلت رأسى من فرجة الباب فلم أجد أحدًا وراءه ،
فدخلت ورددت المصراع ، وكان الظلام كثيفًا فسرت أتحمس
مواضع خطواتى ، حتى اجتزت مدخل الفناء ، فوجدت بابًا آخر
فدفعته فانفتح وظهر من ورائه بستان من فاكهة ونخل وريحان ،
وكانت الدار تشرف عليه محيطة به ، وعلى نوافذها مشربيات
بديعة تبدو أمام العين مبهمه فى الضوء الخافت المنبعث منها .
وسرت فى غير تردد وأنا أتعجب أن يكون القصر خاليًا صامتًا .
فأين حراسه ؟ ولم أخفيت هكذا أنواره ؟ إنها تبص بصيصًا من وراء

السجف تنم عن قناديل مئات تزهر من داخل الأبهاء، وصعدت في السلم على حذر حتى انتهيت إلى مدخل البهو، فما هذه الأصوات المختلفة؟ كانت أصوات الضحك والغناء تتجاوب ويحملها الهواء في أمواج متعاقبة، فتخف حيناً ثم تعلو حيناً، كأنها آتية من عالم بعيد. وزاد بى العجب وقويت في نفسى رغبة الاطلاع، وازدادت القوة التى فى صدرى دفعاً ففتحت باب البهو، فإذا قاعة يضل فيها البصر، طولها ثلاثون ذراعاً وعرضها عشرون، فرشت بأبدع الأثاث وغطيت نوافذها بخالص الحرير، وأحسست تحت قدمي طنفسة لينة، تغوص بى كلما خطوت، ورأيت فى صدر القاعة باباً يأتلق النور من ورائه، وتفوح العطور من قبله. فكانت رائحة المسك تتضوع منه مختلطة بأبخرة العود، وكانت الأصوات الناعمة يمازجها صوت أجش له رنين النحاس. وسمعت رجلاً يضحك ضحكة ناعسة بين كركرة صداحة، كأنها من سجع الطير. وعادت الموسيقى فكانت سحرًا وفتنة، فلم أستطع إلا أن أقف مكانى، وقد غلبنى طربها، فقد كنت منذ صباى مولعاً بالغناء. وكدت أنسى أننى دخلت القصر خلوسة، وأنه لا ينبغي لى أن أطيل الوقوف، ثم أفقت بعد حين وعادت إلى نفسى، فسرت إلى الأمام خطوات وأنا أتعجب. فما للقاضى والغناء؟ وما هذه الأصوات الناعمة التى تسحر الهواء؟ وفكرت فى العودة خاشياً من عاقبة هذه الجراءة. ولكن شيئاً فى قلبى دفعنى فلم أستطع خلافه، ثم رأيت باب القاعة يفتح من

أقصى أركانها، فخفت أن يرانى أحد فأسرعت إلى أقرب ستار فتكشفت وراءه، وجعلت أطل برأسى من مخبئى. فرأيت غلماناً وجوارى يحملون صحافاً وكؤوساً، ثم اقتربت من موضعى فتاة مثل فلقة القمر، تخطر فى أثواب من الحرير الأحمر والأصفر، فلم أتمالك أن نظرت إليها نظرة، ثم أغضيت وقلت: سبحان من خلقها وسواها. وكتمت أنفاسى حتى بعدت عنى، فاختلست إليها نظرة أخرى فرأيتها تحمل ثياباً وتضعها على أريكة، ثم رأيتها تعود خفيفة رشيقة، كأنها مهاة فى الصحراء، أو ريم شارد من كناسه. ولما بعدت عنى أطللت برأسى وراءها حتى فتحت الباب، ودخلت منه، فنظرت من الفتحة فإذا فى صدر الحجرة قلنسوة حمراء، ومن تحتها السيد القاضى حرسه الله فى هالة رائعة المنظر، من مؤنسات أوانس، وندامى صباح. ورأيت أمامه طاسات من المدام ونقولا وفاكهة وأزهاراً، وقماقم من عطور، وأحقاقاً من غالية، فكدت لا أصدق عينى، وثارت الوسائس فى نفسى، وتساءلت أفى يقظة أنا أم فى منام. وجعلت أقرص كفى وأضرب بيدي على وجهى، حتى تحققت أننى فى صحوة، وأننى أرى السيد القاضى بعينه وذقنه وفصه ونصه. فقلت أهذا هو الذى يحاكمنى، ويقتص للعدالة منى؟ وامتألت غمّاً وهمّاً، فقد علمت أن أقسى القضاة فى إيقاع حد الخمر من ذاق لذتها وأحس سورتها. وجررت نفسى والألم يعصر قلبى، فخرجت من وراء الستار لأعود أدراجى، تاركاً إلى الله قضائى.

ومررت فى سبرى بالثياب التى ألقته الفتاة على الأريكة، كانت تبرق فى الضوء المنبعث عليها من بعيد، ونظرت إلى ثيابى نظرة قصيرة فرأيت جبتى وقميصى وقد حال لونهما وانكمشت أكمامهما وتفززت جوانبهما، وتهتك أعلاههما وأسفلهما، فعذرت الحجاب فى منعى ودفعى، واستقر رأى على أن أقترض ثياب الشيخ قرصاً حتى أستطيع إذا لبستها فى الصباح أن أجد إلى بابه سبيلا. وليس على من بأس إذ أنا اقترضتها عارية، ثم رددتها إلى السيد من بعد سليمة طاهرة. وخطفت الثياب وسعيت بها جرياً، ثم فقت فى رحاب القصر قفزاً، حتى بلغت الفناء، وخرجت أعدو حتى بلغت دارى وأنا أتلفت إلى ورائى. وكان صاحبى كمال الدين لا يزال فى حجرتى يغط فى نومه، فلم أشأ أن أوقظه فإن متعته فى الصباح تكون أعظم إذا رآنى أطلع عليه فى بريق تلك الثياب.

ولما ذهبت فى الصباح إلى مجلس السيد الشيخ، وقفت عند الباب أريد الاستئذان، فقام الحجاب يسارعون. وحنوا لى الهامات وهزوا لى القلانس، وأطرقوا لا ينظرون إلى وجهى، وفتحوا الباب على مصراعيه ووقف بعضهم عن يمين والبعض عن شمال، حتى دخلت. وكان السيد فى صدر المجلس، فوقع بصرى عليه ووقعت عينه فى عينى. ثم رأى ملابسه تلمع علىّ، وعرف أننى رأيت كل شىء. ففغر فاه كأنه يهم بالصياح ثم أخذ يجمع ثيابه ويلتمس رداءه، ثم تحرك قائماً يبرق بعينه ويختلج فى خفيه، وأقبل

نحوى فاتحاً ذراعيه، وانطلق فى تحية طويلة مؤهلاً مسهلاً مرحباً مستبشراً، حتى تلاقينا فى وسط القاعة، فضمنى إلى صدره ضمة مودة، وترك كل من حوله وأقبل على فأجلسنى عن يمينه، وأخذ يحيينى ويؤنسنى، حتى هدأ روعى، وذهب عنى وجلى، وصاح فى حجابهِ أن يسرعوا فى خدمتى، وأمرهم أن يعدوا لى قهوة وماء ورد لأستروح وتذهب عنى بهرة السير. وما زال بى حتى شرح صدرى وفك عقدة لسانى، وبدأت أقص عليه قصتى فى قول مبين وحجة ظاهرة، وأظهرت له الحق كله فلم أخف عنه شيئاً، ولم أحاول أن أعتذر ولا أن أستتر، حتى أفضيت إليه بكل ذات نفسى، فتبسم حرسه الله وأخذنى من تحت إبطى، وانتحى بى جانباً وجعل يسألنى عن تفصيل أحوالى، فلان قلبى له وزالت حفيظتى عليه، وهممت أن أعتذر إليه من أخذ ثيابه، وأعدته بأرجاعها إليه. ولكنه لم يمكنى من المضى فى حديثى، بل عانقنى عناق الصديق، ومد يده فدى فى كفى كيبساً ثقيلاً، فتحتة فيما بعد فوجدت فيه مائة من الدنانير صافية وافية. ولما استأذنته آخر الأمر فى الانصراف سألتنى هل جئت إليه راكباً، وهل حملنى جواد أم سعت بى إليه أتان، فنظرت إليه فى خجل وقلت:

— لقد كنت دائماً أسير على قدمى منذ بعث صديقى.

فضحك حتى كاد يهتز عن وقاره وقال: أكنت تركب الصديق؟

فقلت له باسمًا : هذا صديق كان لى فى وطنى ماهوش، وكان الناس يسمونه حمارى، وكنت أسميه البطل الصامت حتى لا أشارك الناس فى شتمه.

وخفق قلبى عند ذلك خفقة شديدة إذ تذكرت صديقى المسكين الذى اضطررتى الحاجة فى وطنى إلى بيعه ومفارقته، وأطرقت حزينا. فقال لى السيد: لا عليك أيها الشيخ المبارك. فما كان مثلك ليسير فى جانبولاد راجلا. ثم أسرع إلى ظاهر المجلس ونادى حاجبه، وأمره أن يعد لى بغلته الشهباء. ثم نظر إلى فى عطف وقال: هى بغلة فارهة، مباركة الخطوات ميمونة الروحوات والغدوات، بارك الله لك فيها، ولا تنس أن تختلف إلينا عليها وأن تذكرنا فى صلاتك.

فسرى عنى كل ما كان من همى، وأحسست للسيد حرسه الله شكرا يملأ قلبى. وسرت عنه راكبًا بغلته لابسا ثيابه وعمامته. وكنت على طول الطريق أدعو الله له ليجزى عنى فضله ويغفر له ذنبه. وكان أهل جانبولاد ينظرون إلى وأنا سائر، فإذا قربت منهم تواثبوا لتحيتى، وأشار البعيد منهم إلى بالبنان. وقصيت سائر اليوم فى دارى عاكفاً على الصلاة أشكر الله وأسبح له تسبيحا.



اتسعت بعد ذلك حلقة دروسى وضاق بها المسجد حتى كادت تمتنع على الناس الصلاة فدعانى هذا إلى أن أتخذ داراً خاصة جعلتها مدرسة أعلم فيها الناس كباراً وصغاراً.

وكننت قرأت فيما قرأت عن أرسطو أن غاية التعليم أن يعرف المرء كيف يستخدم وقته إذا خلا من العمل. ولست أدري لعمري ما الذى حمل هذا المعلم الأول على أن يدعى مثل هذا الزعم؟ إن الناس إذا خلوا من العمل لم تعوزهم الحيلة فى استخدام وقتهم الفارغ، فالطبائع توجههم وتحتال لهم، وتميل بهم وتشرذ. أما أنا فقد رأيت أن السعادة والخير لا يكونان إلا فى العمل، العمل الدائم وإن تغير وتنوع. ولا خير فيمن يخلو من عمل إلا إذا دخل فى سواه. وقد جعلت هذا المعنى شعارى وأذعته فى دروسى وأحاديثى.

جعلت أعلم تلاميذى أن أقل مراتب الإنسان أن يبذل وقته فيما يعود عليه بالمسرة وحده، وإن كانت مسرة بريئة. فالذى يقضى وقته فى نزهة إنما يبلغ أدنى مراتب الإنسان، والذى يسلى نفسه إنما يبلغ هذه المرتبة عينها، إلا إذا كان فى نزهته وفى ترفيهه إنما يتحفز إلى خير أو يساعد عليه من بعد. وعلمتهم أن الذين لا يعملون بل يجدون أوقاتهم فارغة فيحتالون على قتلها هم الطفيلون على

مائدة الحياة. هؤلاء يطردهم الله من رحتمه وإن كانوا لا يقارفون شرًا. لأنهم لا يعرفون السلام ولا يعينون على الخير.

وقد بدا لى بعد حين من مقامى فى جانبولاد أن التعليم وحده لا يجدى إذا لم تصحبه الأعمال. فإن أسمى اللذة فى الخير لا يجدها من يتأمله بعقله، بل من يباشره بعمله. فأقبلت على ذلك القصد مع تلاميذى، وتحاملت فيه على نفسه مع ضعف حولى وقلة ذات يدى، ولو كنت من أصحاب الأعلام لما احتجت إلى معونة من غيرى، ولكن ما حيلتى ولم يكن لى فى جانبولاد قدور؟ ففكرت أن أتكفف الناس أطلب منهم المعونة على مقصدى. ولكن الله يعلم ما قاسيت فى سبيل ذلك من عنت؛ فقد عجزت مرة بعد مرة ولم تفدنى ملابس القاضى شيئاً فى جمع المال. وقد وجود الناس بالتحية وحلو القول، ولكن حلو القول لا يعين على ما كنت أسعى فيه. فأطلت التأمل فى هذا الأمر وتحدثت فيه كثيراً مع تلاميذى. فقال لى كمال الدين يوماً: «إنه من التعسف أن تكلف الناس ما تأباه الطباع. فهل تطمع فى جانبولاد أن يحرم الناس أنفسهم بعض مسراتهم فى سبيل إطعام الجائع الذى لا يجد لقمة، أو كسوة العارى الذى يرتعد من شدة البرد، أو مداواة المريض الذى يقع فى الطريق من الإعياء؟ ما كان ينبغى أن نطلب من النار أن تطفأ بالرجاء، أو أن نطلب من الماء فى القاع أن يعلو صعداً إلى القمم». فكانت تلك كلمة صريحة صارمة ألفت اليأس فى قلوبنا. ولكنه أرف قائلًا: من شاء

الخير فايقدسس إلى الشهوات. فنظر تلاميذى بعضهم إلى بعض
وتصايحوا: «نتدسس إلى الشهوات؟ هذا مستحيل. وما جدوى
الخير إذا كانت الشهوات سبيله؟». فقال كمال الدين مترفقا: «أقصد
أن نتدسس إلى المسرات!». فقال التلاميذ: «نعم. أما هذه فلا بأس
بها». وأخذنا ندبر الخطة المحكمة.

بالاختصار جعلنا نعد في المدرسة كل أسبوعين مجلسا للهو
ندعو إليه عليه جانبولاد وأوساط أهلها، وكنا نحشد فيه المغنين
وصناع اللهو والمضحكين وجعلنا لذلك أجرا، فكنا نأخذ من البعض
ذهبا ومن البعض الفضة، كل على قدر وجاهته. وكنا نميز أصحاب
الذهب بمقاعد في الصدر، فكان هذا كافيا لأن يبذل الجميع ذهباً
حتى صارت القاعة كلها مقاعد صدر.

وكان نجاحنا منقطع النظير فإن عليه جانبولاد أسرع إلى
التلبية، ولم يرد أحد منهم دعوتنا. وانها لعلنا المال انهيا...
فأمكننا أن نطعم الفقراء ونكسو المساكين ونعين المرضى على
الدواء، ولكنني مع هذا النجاح كنت أحس في قرارة نفسي أنني
أخطأت سبيلي، وأنني أحيى ألف سيئة في سبيل حسنة واحدة.
وما قيمة الخير إذا لم يفعله صاحبه متجهاً إليه؟

وكننت أحس أن الله لن يرضى عن عملي ولن يقبل خيرى.
ولم ألبث أن وجدت عقوبة الله أمامي. فما كان الله ليبارك في خير
جاء عن سبيل الشهوات.

عاد تيمور إلى جانبولاد بعد أن قهر المملوك وقتل الجيوش وأتى معه بعدوه بايزيد العثماني في قفص من الحديد ليراه الناس ويعتبروا ويمجدوا في الأرض اسم تيمور.

ولم تطاوعني نفسي على الخروج مع الناس لرؤيته. فما حاجتي إلى رؤية منظر شهدت مثله في الغابة من قبل! وزاد من زهدى في رؤيته ما سمعت عن منظره، فقد قيل إنه أشل اليد والرجل، تعترض وجهه ضربة من سيف تركت فيه جرحاً غائراً يجعل نظرتة كنظرة الفهد. فأثرت الذهاب إلى دار صديقي كمال الدين لأقضى عنده اليوم، لأن مدرستي كانت خاوية إذ خرج أكثر تلاميذى كما خرج الناس لرؤية موكب المنتصر. ولست ألوم أحداً منهم على ذلك فإنه من طبع الإنسان. كان الإنسان منذ القدم يعبد الأقوياء القساة.

ولم يكن كمال الدين وحده في الدار، بل كانت معه أخته الصالحة الكريمة «نجوى». نجوى الطاهرة البتول التي كانت لأخيها كل ما في الحياة.

كانت شابة في البضع والعشرين وإن كنت كلما حدثتها رأيت من عقلها كمال الخمسين، وكنت كلما نظرت إليها تذكرت عليّة ابنة علاء الدين.

كانت لها عيناها الواسعتان وجبينها الوضاح وصفحة وجهها
الوضاء.

حتى لقد كان يخيل إلى أحياناً أنها هي التي رأيتها في الهودج
المزركش في موكب السلطان في ماهوش.

قضينا اليوم معاً وكان يوماً من الربيع مازال منذ الصبا يهزنى
ويطربنى، ويعتربنى فيه خشوع وتشملنى فيه رقة، كأن زهره
يتفتح فى قلبى، وكأن طيره يتغنى فى حنايا صدرى. كان الربيع
دائمًا يجمعنى بالخليقة ويمزجنى بالوجود ويوحى إلى أسمى
المعانى. ولكن الربيع فى ذلك اليوم كان أكثر سحرًا ونشوة.

سرت فى الحديقة الصغيرة أنقل طرفى من عود إلى عود ومن
زهرة إلى زهرة، على حين جلس صديقى فى ركن منها يصلى
ويقرأ الأوراد. وذهبت «نجوى» إلى شؤون البيت كعادتها إذ تمهن
لأحيتها. وقد وجدت فى تأمل المخلوقات عبادة أسمى من كل عبادة
إن كانت كل ورقة تملأ صدرى سلامًا وشكرًا، وكل حشرة أفحص
بنظرى أعضائها وحركتها تملأ عقلى علمًا وخضوعًا. وقضيت فى
جولتى حول الحديقة الصغيرة ساعات كنت فيها أحلق فى الآفاق
وأهيم فى الوجود من الأزل القديم إلى الأبد المقيم إلى ما شاء
الله، وكان أقل ما يقع عليه بصرى يفتح لى عالمًا لا يقل عن الفضاء
الفسيح فى روعته وجلال أسرارهِ.

رأيت عنكبوتاً ضئيل الجسم لم أكد أتبينه فى ضوء الصباح، ورأيت بيته الواهى وقد انعقدت عليه قطرات من الندى تلمع عليها أشعة الشمس بألوان لا حصر لها ولا يستطيع اللسان وصفها، ورأيت المخلوق الصغير يتحرك ويلقى من فمه خيطاً لا تبصره العين إلا إذا لمع عليه شعاع من الضوء، فمددت إليه أصبعى فعلق به وإذا بالعنكبوت يتعلق بخيطه فى طرف أنملتى ويهتز فى الهواء مترجحاً، ثم رأيت يتسلق الخيط حتى كاد يلمس أصبعى، فهزرت يدي فإذا به يسرع فيمد من فمه غزلاً رقيقاً تطاول حتى صار على أكثر من ذراع منى. فملأنى هذا الخلق البديع عجباً. هو آلة دقيقة الصنع عجيبة التركيب لا تكاد العين ترى لها جرماً، ومع ذلك فله أرجل وأطراف وفيه حواس لا أدري عددها، وله أهداب وأجهزة وفم ومعدة وآلة لإفراز هذا اللعاب الدقيق الذى لا يخونه إذا امتد ولا ينقطع به إذا تسلقه. كل هذا قد اجتمع متناسقاً فى نقطة ضئيلة لا تكاد العين تبصرها، فسبحانك يا الله!

وانتهى صديقى من أوراده وجلس ينتظرنى. وكانت «نجوى» قد جهزت طعاماً للإفطار، أتم الله عليها نعمته وأسبغ عليها فضله، فدعتنى إلى الطعام. وما كان أطيبه! ثم قضينا سائر اليوم فى درس وتأمل وحديث طيب وصلاة، وكان مجلسنا يفيض بنور الله، ولم أحس فيه أننى معلم ألقى الدروس، بل كنت أعلم من صاحبى أكثر مما كنت أعلمهما. كانت «نجوى» إذا تحدثت فتحت

فى قلبى ينابيع من الفيض فأغرق فى تأملى حيناً ثم أطفو وقد امتلاً
قلبى يقيناً. ولست أدرى ما ذاك الذى كانت تحدثه فى بنظراتها
الوديعه. كانت تستمع لما أقول وتنظر إلى بعينيهما الواسعتين
الحالمتين ثم تنطق بكلمة أو بكلمات فإذا بى أسمع معنى لم يجل
من قبل بخاطرى. وقد تنظر إلى صامته فإذا بى أرى عالماً خفياً من
الأسرار ينفث أمام عينى.

كانت نفسها الصالحة تتصل بالملا الأعلى، فإذا هى نطقت
أنفذت بصرى الكليل إلى طرف منه فألمح لمحة سريعة تكفى لأن
تفيض على من النور القدسى فيضاً غامراً.

ولما ذهبت إلى بيتى مع وسط الليل كنت أحس أننى لا أسير
فوق الأرض بل تحملنى أجنحة الملائك على متن الهواء، حتى
كأن السحب قد صارت تحت مسراى وكأن تيمور وشيعته وبطشه
وخوفه كانت كلها تحت مواطئ قدمى.

ذهبت إلى منزلى وجلست على كرسى كبير لم يكن فى غرفتى
سواه إلى جوار النافذة المطلة على الفناء، وأشعلت المصباح ولم يكن
به سوى القليل من الزيت، فجعل يتراقص ويططق ولا يكاد نوره
يبلغ زوايا المكان. فبدأت الأركان بعيدة كأنها تنتهى إلى الأفق فى
طرف السماء. وأغمضت عينى وأنا جالس على الكرسى لا أريد نوماً
ولكنى وجدت فى الغمض راحة أنست إليها. فأخذتنى سنة من
النوم فتحت عينى بعدها على صوت سمعته ينادينى. فتلفت حولى

ثم نظرت إلى النافذة ورأيت شخصاً واقفاً قد وضع مرفقيه على حافة النافذة واتكأ بذقنه على كفيه، فوسعت عيني لأتبينه فى الضوء الخافت فإذا به صاحبى «طوطاط» وبادرنى قائلاً: «أين كنت بالأمس؟».

فقلت له منكراً: «وما سؤالك عن هذا؟».

فنظر إلى معاتباً وقال: «لم تذهب إلى لقاء تيمور. وقد سألت عنك».

فصحت فى فزع: «تيمور يسأل عنى؟».

فقال جاداً: «وما تعجبك من هذا؟».

فقلت: «إنه لم يرنى».

فقال ضاحكاً: «ولكنه يعرفك. ألا تفهم؟ إن تيمور لا يخفى عليه

علم بأحد».

فأزعجنى قوله وداخلنى منه هم زادنى قلقاً، فأطرقت صامتاً

أفكر فيما عساه ذكرنى به. فقرب «طوطاط» منى وهمس فى أذنى

«احذر!».

فقلت له مبادراً: «مم أحذر وما بى ما أحذر منه؟».

فقال جاداً: «ألجم لسانك هذا. كفاك ما صنع بك».

فنظرت إليه فى دهشة وقلت: «لسانى أنا؟».

فقال لى فى رفق: «نعم. فما هذه الدروس التى تلقىها، وما هذه

الكرامة الإنسانية التى تتحدث عنها؟ ثم ما هذه الأغانى التى

توسع لها صدر مدرستك؟ وماذا عليك إذا شئت الغناء أن تجعله في بيت رجل مثلى ليكون طربك فى ستر وتجمل؟».

ثم غمزنى فى ذراعى هامساً: «لا تذهب إلى المدرسة منذ اليوم، فقد أمر تيمور بإغلاقها».

قال هذا ومضى عنى مسرعاً.

كانت كلمته هذه مثل الصاعقة تنقض علىّ، واسودت الدنيا فى عينى ولم أدر ماذا أصنع. وشعرت عند ذلك أول مرة أننى واقف وجهاً لوجه أمام تيمور، وتمثلت لى كل قوته وكل سطوته وأحسست الخوف يملكنى. لقد كنت من قبل أتأمل جبروته بالفكر وأسمع عن بطشه بالأذن، وأمقت كل هذا وأنا بعيد عنه، ولكنى عند ذلك رأيت نفسى وضعفى أمام سلطانه الهائل، فخيم اليأس علىّ وشل حركتى. فقممت منتفضاً عن مقعدى، وقد شعرت بأنه لم يبق لى فى جانبولاد مقام؛ فإنى لا أستطيع البقاء فيها إلا إذا رضيت بأن أذهب إلى تيمور وأتمسح عند أقدامه.

وقمت إلى الصلاة واتجهت إلى الله أن يسدد خطاى وأن ينقذنى من الوسواس، فلما فرغت منها عدت إلى نفسى أحاسبها حساباً عسيراً. فهى التى زينت لى اتخاذ دار العلم مسرحاً للهو، وهى التى جعلتنى أفرط وأسف فى سبيل الذهب. وامتلأ قلبنى سخطاً على ذلك المعدن الخسيس الذى أضلنى فإن الله لم يجعل سبيلاً إلا على من ظلم وأخطأ. وأقبلت على صلاتى أستغفر فيها ربى من ذلك

الإثم الذى وقعت فيه. وجعلت أناقش نفسى وأحاجُّها فى الهجرة وترجحت بى الميول بين المشقة وبين الكرامة، ولم أستطع أن أهتدى إلى رأى بينهما إذ كان أحلى الخطتين مرًّا. وفيما كنت فى حيرتى برقت لى بارقة من الأمل فألقى فى روعى عزم رأيت فيه فرصة الخلاص مما كنت فيه. بدا لى أن الهجرة نوع من الهروب وأننى لا ينبغى لى أن أهرب حتى أبلى فى سبيل الحق بلاء ألتبس فيه العذر لنفسى، فإذا اضطررت بعد ذلك إلى الهجرة لم أجد على نفسى سخطاً أو لومًا. فعزمت على أن أقيم فى جانبولاد وأن أجاهد فى سبيل الحق ما استطعت، وأن أقابل الجبروت بالتحدى، وأرفع رأسى كريماً لا أحنيه لقوة ظالمة، فإذا أصابنى من ذلك ما يصيب الشهداء كنت قد بلغت عذرى. وامتلاً قلبى يقيناً بأننى لن أخشى قوة الطغاة فوالله إن الحق ليصرعهم لو نطق به من ملأه الإيمان.

وعزمت بعد ذلك على أن أصحح مكانى فى جانبولاد، وأن أضع نفسى حيث كان يليق بها أن تكون. فإنى لم أكن مساوياً لهم. فإذا كان سادة جانبولاد قد تواضعوا على أن يجعلوا الأمر كله لأنفسهم، فلن أسمح بأن أكون دونهم فى شىء. عزمت على أن أدخل نفسى قسرًا إلى المكان الذى يليق بى. وما كان لمثلنى إلا أن يكون فى المحل الكريم. وما كدت أستقر على هذا الرأى حتى أخذت فى الاستعداد له واجتهدت فيه اجتهاداً كبيراً.

كانت الأعلام فى جانبولاد لا ترفع طبعاً إلا إذا ملأ الناس قدوراً من الذهب بعددها، ولكن مالى وللذهب؟ قد رسم السادة خطتهم على أن يجعلوا الذهب وقفاً عليهم، فكانت النتيجة أن الذكاء والعلم والأدب والخير والفضل لم يصبها منه شىء، إذ لم تجعل لها قيم فى خطتهم المرسومة. وما كنت لأقيد نفسى بقواعدهم منذ عزمت على أن أطيع الحق وحده، ولا أنظر إلا إلى جوهر الأشياء. فلو أنصف الناس لجعلوا المكان الأول فى القيم كلها للذكاء والفضل وأمثالهما مما ضاع قدره فى جانبولاد.

ومهما يكن من الأمر فقد استقر رأى على أن أستغنى عن الذهب وأتخذ لنفسى معياراً رمزياً أجازى به الأفعال بما تستحقه. والذهب بعد التفكير لا يزيد على أنه معدن مثل كل معادن الأرض، فهو كالحجر لا يزيد على أنه من عناصر الطين، وهو لا يستحق كل هذه العناية التى يحيطونه بها، إذ هو لا يؤكل ولا يشرب ولا يلبس، وشربة واحدة من الماء فى الصحراء تكون أغلى من كل ذهب الأرض. وإذا كان المقصود إنما هو وضعه فى القدور وختمها بعد ذلك فلن يضير القدور شىء إذا ملئت بشىء آخر كالحصا

أو الحجارة، ولن تكون قدر من الخزف خيرًا لأن واحدة مختومة على الذهب والأخرى مختومة على الحجارة.

فعمدت إلى قرطاس كتبت عليه أنواعًا من العمل، وكتبت أمام كل منها ما يستحقه من وزن الذهب لو أنصف الناس، ثم عمدت إلى قرطاس آخر كتبت عليه أنواعًا من النقص أو الظلم أو أعمال السوء، وجعلت ما يقابلها من العقوبة مقدارًا بوزن الذهب. وعزمت على أن أحاسب على أعمالها جميعًا فأقدر ما قدمت من خير وأجعل لكل عمل من ذلك وزنًا ألقيه في قدر - أقصد وزنًا من الحصى بدلًا من الذهب. فإذا ما امتلأت قدر ختمتها ورفعت على داري علمًا، وكلما ملأت أخرى وختمتها رفعت علمًا آخر.

ولم أنس محاسبة نفسي على ما تجترم من الذنوب، فعزمت على أن أنقص من القدور ما يعادل قيمة عقوبتها على آثامها، حتى لا يبقى فيها إلا وزن ما هو باق لي من الحسنات الخالصة وكنت في ذلك متحرجًا متأثمًا، فإن الله قد وعدنا معاشر البشر لما علم من ضعف الطبيعة الإنسانية أن نجزي على الحسنة بعشرة أمثالها، وألا نجزي على السيئة إلا بمثلها، فبالغت في الحيلة وجعلت الحسنة والسيئة سواء في الأجر والعقوبة.

ولأضرب مثلاً مما وضعت من القيم لأبين أنني لم أغال في التقدير، فقد جعلت لإطعام الفقير وزن حبة من الرمل، ولعيادة المريض وزن حصة صغيرة؛ فإن هذه من الواجبات التي لا ينبغي

لأحد أن يطلب عليها الأجر. وجعلت لكتابة رسالة فى الأخلاق وزن حصاة كبيرة، ولكتابة رسالة فى التاريخ وزن درهم لأنه سجل الأمم وهو يعلم الناس أن الحياة تبنى ولا يبقى على الدهر إلا الخير، وأن الظلم مرتعه وخيم، وأن العسف لا يقيم الدول إلا إلى حين. وجعلت لكتابة القصة وزن أقة لأن القصة لا يقدر عليها إلا من وهب الله له من فضله. ولم يكن فى تقديرى مبالغة فإن الخلفاء العظماء كانوا فيما مضى يجيزون الشعراء بمئات الألوف من الدراهم على أبيات فى المدح الكاذب، أو فى وصف الخمر واللهو، فإذا أنا جعلت للقصة وزن أقة واحدة من الذهب! لم أكن مغالياً. وجعلت لتعليم الناس قدرًا كاملاً - نعم! قدرًا كاملاً، فالتعليم يطهر النفوس ويبنى أساس المستقبل ويفهم الناس معنى الإنسانية. فإذا خرج المعلم رجلاً كاملاً أضاف به إلى الأمة ثروة لا تقدر بمال. وما كنت لأبخس التعليم حقه وأنا أعرف قيمته، ولن يضيرنى أن تيمور وعلية جانبولاد لا يعرفون له قدره فإن الحقائق لا يستطيع إدراكها إلا من يسمو بذكائه إلى المعانى العليا. ولما انتهيت إلى ذلك أخذت فى إعداد القدور والحصى واستطعت أن أملأ لنفسى قدرين كبيرتين، ثم عمدت إلى ثوب فقددت منه ما يكفى لصنع علمين، فما أتى العصر حتى كان علما أصفران بديعان يخفقان فى الهواء فوق دارى.

ثم أسرع إلى دار صديقى كمال الدين لأقضى معه ساعات فى
الدرس والعبادة، إذ قضيت اليوم كله لاهياً عن عبادتى، وأحسست
شوقاً إلى مجلس العلم، وحمدت الله إذ بقى لى فى جانبولاد صديق
أتذوق معه لذة الدرس. فلما طرقت الباب فتحت لى «نجوى»
الكريمة الصالحة، فهشت إلى وبشت، ونظرت إليها وكأن نوراً
يشع منها إلى قلبى. وخفق قلبى فأسهرت داخلا وأغضيت حتى
لا أطيل النظر إليها. ولست أدرى لم كانت صورتها تنطبع فى
خيالى وتعاودنى فى خلواتى وتلازمنى فى سيرى، حتى كادت
تنافس الصورة التى طويت عليها جوانحى وجعلتها رمز الكمال
والأمل: صورة عليّة ابنة علاء الدين.

وبعد قليل جاء أخوها، فجلسنا ثلاثتنا نندارس ونتعاطى
أطيب الحديث وصلينا وقرأنا الأوراد حتى مضى صدر من الليل،
وأخبرتهما بما كان من أمرى؛ فاختلفت فيه الآراء، وراجعنى
كمال الدين فى رأى مراجعة شديدة ولكننى ما كنت لأرجع عن
أمر تبين لى فيه وجه الحق، ولم يراجعننى كمال الدين إلا لأنه
خشى على من عواقبه. ولكن ما هذه العواقب التى يخشاها؟ إن
الحق واضح ولا يلىق بنا أن نتردد فيه.

ثم قمت عائداً إلى دارى والسرور يملأ قلبى، والأمل يضىء لى
سبيلى، ولم أنس أن أذكر نظرة «نجوى» عندما ودعتها. لقد خفق
قلبى حفقة شديدة عندما نظرت إلى عينيها الواسعتين، ولست

أستطيع أن أعبر عن أثر نظراتها في نفسي ، فإن الألفاظ تتضاءل عن وصفه - تلك الألفاظ التي لم يتخذها الناس إلا مطية لما اعتادوه من معانيهم. حقاً أنى لم ألبث أن غضضت من بصرى وسرت عنها مسرعاً ولكنى جعلت ألوم نفسي ، فما كان ينبغي لى أن أستبيح تلك المتعة من النظر إلى جمالها البارِع وملء عيني منه. ومضيت في سبيلى وصورتها ماثلة في قلبى حتى غلبت على الصورة عليّة ابنة علاء الدين. مالى وعليّة ! إنها ليست إلا خيالاً ، وهذه «نجوى» الطاهرة التي كنت أسمع حديثها وأستوحى العلا من نظرتها.

«نجوى» التي كنت أراها حقيقة أمامى. وما يدرينى إذا أنا رأيت عليّة وحدثتها كيف أجد حقيقتها؟ ألا أراها ترفع حاجبها استعلاء وتزور عني ولا تهش لى كما تهش نجوى الكريمة إذا لقيتها؟

بلغت منزلى أخيراً ولم أنس أن أحاسب نفسي على نظرتى التي نظرتها. فأخذت حفنة من الحصى من إحدى القدرين وقذفت بها إلى جانب ، ثم قمت إلى أحد العلمين فحططته عن دارى ريثما ييسر الله من الحسنات ما يعوض ذلك النقص. وأطلت في ليلتى من القيام بالصلاة لعل الله يتجاوز عن خطيئتى. وعزمت على أن أمسك قلبى من بعد فلا أنظر إلى «نجوى» إلا كما نظر موسى إلى النور المقدس.



كانت الليالى بطيئة كأنها تزحف زحف الدبى، وكانت النجوم تلمع من وراء القضبان الحديدية الغليظة كأنها قد سمرت فى مواضعها من السماء. وكنت أقف من البرد فى سجنى المظلم، ولولا الصلاة وقرة عيني فيها لتمزق صدرى من غيظه وتطايرت عنه أضلاعى. قذف بى فى السجن كما ترمى الهرة فى البئر أو كما يخبط الحجر فيتدحرج إلى الهاوية. وقد حاولت أن أعرف ما الذى دعا إلى سجنى وأنا رجل قد كفيت الناس كل أمرى فلم أستطع أن أهتدى إلى شىء، لأن السجنان اللفظ كان يأبى أن يكلمنى، وكنت لا أرى سواه إلا بعض رفاق كانوا مثلى لا يعرفون لهم جريمة. وبقيت كذلك إلى أن أحسست يوماً على جدار جحرى حساً فنظرت حولى ورفعت رأسى فإذا وجه يطل على من بين القضبان. فبرقت فيه لأعرفه فلم يسعبنى الضوء الضئيل. ثم رأيت يفتح فمه الأهمم ويهمس ينادينى، فصعدت بصرى فيه حتى بلغت رأسه الأصلع وصحت فرحاً «طوطا!» فهز رأسه وهو صامت، وكان يحاول فى مشقة أن يلف ذراعه اليمنى حول القضبان ليتعلق بها، ثم رمى إلى حزمة بيده اليسرى وقال هامساً: «كيف حالك؟ تشجع!».

فصحت به: «قل لي لم جيء بي إلى هنا».
فقال متأثراً: «ألم أقل لك؟ إنك لا تسمع النصح. كيف تجرأت
على تزوير القدور؟».

وعند ذلك ثقل جسمه على ذراعه فاختل تماسكه ووثب إلى
الأرض بعد أن قال لي: «تصبر».

فعدت إلى وحدتي حزيناً أفكر فيما مضى بي من أيامي في
جانبولاد. وأقبلت على نفسي ألومها على الخروج من الوطن،
ولاحت لي ماهوش عند ذلك جنة نعيم. حقاً لقد خرجت منها حانقاً
لأنني لم أجد لي بها مكاناً، ولكنني كنت أتكلم فيها وكنت أضحك
وكنت أسخر، وما كنت أرى فيها أحداً خيراً مني. بل لقد ذهبت
يوماً لأسطو عامداً على أموال الناس لآخذ حتى من أرزاق ماهوش
غضباً، وعدت أحمل ما أخذته عن رضا. أيها الوطن العزيز، كنت
أجد فيك الحب فجحدت نعمتك، وهأنذا أدوق عقوبة الجحود. لقد
كاد قاضي جانبولاد يحدني في جرم لم أرتكبه، ولولا أنني لبست
ملابسه لأصابني العذاب والعار. ثم أغلق تيمور مدرستي مدعياً
بأنني أذيع فيها الفساد وأتخذها مسرحاً للهو، وهذا هو يلقي بي
في السجن لأنني زورت القدور. أي قدور هذه التي زورتها! إن
الطغاة لا تعوزهم الحجج إذا شاءوا التماسها. ويا ليتهم إذا أرادوا
البطش اتجهوا إليه كما يتجه الضيع إلى فريسته مكشراً صريحاً
لا يعرف مواربة ولا رياء. ليتهم يفعلون ذلك فيبلغوا العذر لأن

هذا هو قانون الغابة، ولا بأس فيه على القوى إذا سطا بالضعيف. ولكنهم يأبون إلا أن يتستروا وراء ما يقيمونه من القواعد ويسمون ذلك عدلاً.

ذكرت ما كان من حوادث الأيام الماضية، وأيقنت أن القدر كانت سبب بليتي. فإننى ما كدت أضع العلم فوق بيتى حتى رأيت الناس يجتمعون حوله منذ الصباح، وينظرون إليه متهمسين. فحسبت أنهم يعجبون بلونه ورشاقة خفقاته. ثم أتى الليل فجاء إلى رجل من هؤلاء أصحاب الريش، فأخذ يسألنى عن علمى وعن قدرى، وزعم أنه لا بد له من الاطلاع عليها حتى يختمها بنفسه. هكذا زعم وقال لى إن أعلام جانبولاد لا ترفع إلا إذا ختم القدر بيده وتحقق من أنها مملوءة. فذهبت معه إلى القدر ففض ختامها ووس يدده فيها، فصحت به حانقاً: «ماذا تفعل؟» ولكنه كان قد سبق صيحتى وأخرج يده من القدر مملوءة بالحصى. فنظر إلى ضاحكاً وقال لى: «ما هذا؟» فلم أجد بداً من أن أشرح له الأمر كله، وهو يهز رأسه حتى فرغت من قولى بعد أن أوضحت له كل ما قد يبهم عليه. فذهب عنى صامتاً بعد أن نظر نحوى نظرة عجيبة. فلم أعبأ بنظرته لما علمته من غرابة أطوار أصحاب الريش، وعدت إلى غرفتى لأهيب عشاى وما كدت أفعل حتى جاءنى جماعة من الشرط يأمروننى أن أسير معهم. ولم تجدنى فيهم مساءلة ولا مدافعة، فقادونى إلى هذا السجن بغير أن يتكلموا كلمة واحدة.

ومرت بى الأيام بسجنى فى بطن، لا يقطع ظلامها إلا شعاع ضئيل
من النجوم الوامضة الباردة، التى لا تتفأ تحدث حديث الأجيال
الفانية. ولم يكن أحد يقطع على وحشة الوحدة إلا صورة «نجوى»
التى كانت تلازمنى، ثم صاحبى «طوطاط» إذ يتسلق الجدار من
خارج ويتعلق بالقضبان حيناً ويهمس لى بكلمات قصيرة. وكان فى
كل مرة يرمى إلى ربطة فيها ما يتفق له من طعام أو ملابس، وكان
أحياناً يطرفنى ببعض الفاكهة أو الحلوى فكانت إلمامته القصيرة
تبعث فى قلبى أنساً يقيم فيه أياماً. جزاه الله من صاحب كريم.
وكانت آخر مرة جاء فيها «طوطاط» لزيارتى فى ليلة من رمضان،
وكننت أستعد للصلاة قبل الإفطار، فقفز إلى ربطته قائلاً:
- هى سنبوزجة لسحورك. صنعتها بيدي.

فخفق قلبى عندما تذكرت طعامه الذى صنعه بيده على جانب
الغابة، فما كان أشهاه من طعام، كان القمر يضىء الفضاء، وكان هواء
الربيع طلقاً لا يشبه فى شىء هواء سجنى. وهممت بأن أشكره على
بره وكرمه ولكنه قاطعنى هامساً: «تشجع. إن تيمور قد ذكرك».

فصحت به: «ذكرنى؟ وهل كان ذكره إياى إلا شؤماً؟».

فهمس قائلاً: «هذا شىء آخر. كنت عند ذلك طليقاً حرّاً».

فصحت: «ألا يكون شؤمه إلا على الأحرار؟».

فهمس فى رعب: «صه؟ ألجم ذلك اللسان. اسمع. نسيت أن
أخبرك أن لك رسالة مع السنبوزجة. خطاب. أسمعت؟».

ثم قهقهه وقال: «لقد صرت لك عامل بريد». فاضطرب جسمه فى ضحكه وثقل على ذراعه فخلصها من بين القضبان ووثب على الأرض.

فأسرعت إلى الربطة ففككتها وتلمست الرسالة من طياتها، ولكنى تذكرت الظلام، فألقيت بها حانقاً وقضيت الليلة مفكراً مهموماً لم أذق طعاماً، وكانت همومى لا تفارقنى إلا إذا قمت للصلاة. كانت الأفكار تشرذبى دائماً إلى جانب الغابة فأذكر ما رأيت فيها وما سمعت، وتمثلت لى قوانين الإنسان فى مجتمعاته أشد قسوة من القانون الطليق الذى يسرى فى الغابة. وبدا لى فى ظلمة سجنى أن قانون الأسود والفهود أقرب إلى الرحمة من تلك القيود التى يضعها تيمور. فالأسد لا يقتل لأنه يحب القتل بل لأنه يريد أن يشبع جوعه. وليس فى قانون الغابة مثل هذه السجون المظلمة التى يزيد عذابها على عذاب ساعة تعانيها الفريسة قبل أن تنزلق إلى بطن الوحش المفترس.

هكذا قضيت الليلة فى تفكيرى الحانق حتى طلع الصباح، وكنت أترقب دخول الشعاع الضئيل من النور لكى أستطيع أن أقرأ الرسالة. فما كدت أتبين الحروف حتى أقبلت عليها أقرأها مع ما أصاب عيني من الألم فى قراءتها على النور الضئيل. ولكنى لا أذكر سروراً كان أعظم عندى فى يوم من أيام حياتى مما أحسسته بعد أن مضيت فى قراءتها. لقد تحرك المساكين الذين كنت أعلمهم وأواسيهم.

تحركوا من أجلي وعزموا على الفزوح من جانبولاد. هكذا أخبرني صديقي كمال الدين فى رسالته، جزاه الله خيراً. ولم ينس أن يبعث إلى فى خطابة تحية من أخته الصالحة. كتبت نجوى إلى تحيتها تشد من عزيمتى وتدعو لى بالفرج القريب. إننى لم أزل منذ حللت فى ذلك السجن أراها أمام عيني، ولكن أفكارى السوداء كانت تجعل لصورتها إطاراً من الأحزان والآلام. أما صورتها التى ملأت قلبى عندما قرأت تحيتها فقد كان إطارها من السلام والسعادة.

دب الأمل إلى قلبى وصار يرفه عنى أثر ضيق السجن وظلامه. وما أكرم مساكين جانبولاد! ليس لبلد أمل فى الحياة إذا فقد مساكينه، فهم الأيدى وهم الأرجل وهم القلوب والأحشاء. لا قوام لأمة بدونهم ولن يستقيم أمر أمة إلا إذا ساوت بين رأسها وبين سائر أعضائها فيما يجب لكل منها من الرعاية والحرمة والكرامة. ولكن الطغيان أعمى، ولا سبيل إلى فتح عينيه إلا بأن يظهره المساكين على أنه لا حياة له من غيرهم. يستطيع المساكين أن يعيشوا فى الأرض الفسيحة، فإن عندهم الأيدى والأرجل تعمل وتسعى، وهم يجدون وطناً حيث يحلون لأنهم فى كل وطن يخدمون. ولن يضرهم أن تزول الحروب بين الأمم وأن تكون بلاد الله كلها للإنسان.

لم أشك فى أن تيمور قد فزع واضطرب من هؤلاء المساكين الذين أرادوا الخروج من جانبولاد. أيها الأشقياء لو اطلعتم على ما فى

قلوب الطغاة وهم يدوسونكم بأقدامهم لسركم ما تطلعون عليه. إنهم يخشونكم وأنتم صرعى ويعرفون ضعفهم وقوتكم.

ولقد صدق ظنى فيما ذهب إليه، فما أتى عصر ذلك اليوم حتى سمعت السجن يعالج فتح باب جحرى ثم سمعت صراخ المصراعين وهما ينفرجان ثم رأيت ذنب السيد الذى انحنى وهو داخل من الباب المطأطئ. كان الذنب يضطرب فوق قلنسوة حريرية صفراء عند ما فتح الباب. ولما دخل الذنب دخل وراءه السيد. وكان مثل الببغاء كسائر أصحابه، حتى كدت أقهقه من رؤيته، ولكنى أمسكت نفسى ونظرت إليه صامتاً.

فنظر إلى مبتسماً وقال بعد أن حيا: «أنت رجل طيب. هكذا يقول الناس عنك. وليس السجن بالمقام اللائق بك». ثم نظر حوله مشمئزاً.

فقلت له: «لاشك فيما تقوله أيها السيد. إننى أحب السير فى ضوء الشمس والتنفس من الهواء الطلق، وأحب أن أذهب حيث شئت وأتكلم مع من أحببت وأقول ما يدور فى نفسى إذا أردت. أحب كل ذلك وأحس تلك الجدران التى أقيم بينها تكاد تنطبق علىّ وتزهق أنفاسى بركود هوائها وظلمتها».

فهز رأسه موافقاً وقال: «وإذا فأنت ترى مصلحتك فى التخلص منها؟»

فصحت: «مصلحتى! إنما هو حقى».

فقال الرجل متراجعا: «حقك! ليس من حقك أن تسير الأمور حسب أهوائك».

فقلت في حق: «بل أقول إنه حق، وليس لأحد أن يسلبني إياه». فاحمر وجهه ونظر إلى نظرة بشعة وقال: «أهذا ما تعلمته في سجنك؟»

فقلت مبتسما: «نعم تعلمت من السجن أشياء كثيرة». فقال ساخرا: «تعلمت مثلا أن توجه ألفاظا جافية إلى من جاء يحسن إليك».

فأخذ الغضب مني مأخذه وصحت به: «تحسن إلي! إنني لا أقبل منك إحسانا. إن من حقى أن أكون حرا. ولو كنت مجرما لما كان هذا السجن عقابا جديرا بإنسانيتي. اقطع يد السارق واتركه حرا، واقتل القاتل ودع روحه حرة، إن الحرية أثمن من اليد ومن الجسد كله».

فنظر إلي صامتا والدهشة تعقل لسانه، ثم حاول أن يهدئ نفسه وقال: «دعنا من هذا القول الحانق. كن هادئا وافهم فيم أتيت إليك». فقلت له هادئا: «هأنذا ترانى هادئا. ولكنى أنطق بالحق. قد علمنى السجن ألا أمانع نفسى من قول كلمة أراها حقا. كنت أحيانا أتردد فى قولها من خوف هذا السجن، فلما دخلته وتحملت ضيقه وجدت أن كل ما فيه من عذاب وألم أقل قسوة من الشقاء الذى يسببه الامتناع عن قول الحق».

فقال الرجل متكلفاً العطف: «لسنا نخشى الحق. قل ماشئت من الحق الصحيح».

فضحكت مقهقهةً، وكانت تلك فلتة لمت نفسى عليها، ولكنى لم أقدر على الامتناع منها، ثم قلت: «هنالك إذا حق صحيح وآخر غير صحيح؟ إنما أعرف الحق حقاً. فإذا لم يكنه كان باطلاً». فتحرك الرجل فى قلق ولكنه تكلف الهدوء وقال باسمه: «قله إذا. قل الحق».

فقلت مسرعاً: «لقد قلت ما ثار فى نفسى وهذا حسبى الآن». فقال فى عطف متكلف: «أنت مخطئ فى تقدير كله. لست من هؤلاء الأغرار الذين يليق بهم أن يخطئوا وأن يعاقبوا. فأنت رجل عالم لست من السوقه الرعاع».

فقلت مندفعاً: «السوقه الرعاع؟ من هؤلاء؟ لا أعرف سوقه ولا رعاعاً إلا هؤلاء الذين يملأون الأرض فساداً. وأما رجل الحقل الذى يلوث يديه بالطين ويسير عارى القدمين ممزق الثياب، ويذهب آخر اليوم إلى أهله بحزمة من الفجل ورغيفين - أما هذا فرجل وهب نفسه للعمل ووهب ماله إلى الآخرين. فإذا كان من السوقه الرعاع فما أحب إلى أن أكون منهم». فقال السيد متأففاً: «أوه! أقصد أنك رجل عاقل لا ترضى بالفوضى».

فقلت: «لست أرضى بالفوضى لبلد من بلاد الله».

فقال مرتاحًا: «إذا قد اتفقنا، وأنا آت إليك موفدًا من مولاي تيمور العظيم، إنه يمد يده إليك». فصحت في دهشة: «أنا؟ يمد يده إليّ أنا؟ أنا هنا أسير ويد الأسير مغلولة».

فقال معاتبًا: «أنت تتجنّى. هذا كرم لا ترفضه».

فقلت وأنا أغص بريقى: «كرم؟ ما الذى حمله على القذف بى إلى هنا؟ أليس هذا بغيًا؟ وهل إزالة البغى تكرم؟».

فصاح فى حنق: «أنت تصدنى وتمعن فى جرح كرامتى، وتستتهين باسم مولاي».

فقلت له هادئًا: «لست أفهم».

فتحرك ضجرًا وقال: «إذا أنت ترفض السلام».

فقلت: «الذى يريد السلام لا يستشير فيه».

فصاح وقد نفذ صبره: «هذا تعنت. هذا عناد».

فقلت وقلبى يدمى: «أنا فى سجنى كأننى لست شيئًا. لقد سلبتم حقى فى الحياة حرًا وأنتم أصحاب الحول والقوة. ردوا علىّ حريتى فهذا حقى».

فقال وقد ثار: «لقد علمت أنك لا تجيب إلى السلام، فلتتحمل العقبى». فلم أتمالك أن قهقهت مرة أخرى وقلت: «تهددنى؟ وماذا يأخذ الريح من البلاط؟».

فجعل الرجل يشتم ويهدر بألفاظ لم أفهم معناها، وكان منظره مسليًا فوقفت أنظر إليه حتى تسكن، ثم قلت له: «إذا كانت الحقيقة تغضبك فما ذلك من ذنبى».

فأخذ يرعد ويبرق وقبض يده ورفعها نحوى صائحًا: «اخرس!»
فنظرت إليه هادئًا ولا أزال أضحك وقلت: «أهكذا تخشى لسانى»
فدفعنى دفعة غيظ كدت أقع منها، ولكنى لم أشأ أن يخرج بغير
أن أسمعه آخر كلماتى فقلت:

«ستقف معى أنت وسيدك وجهًا لوجه أمام الأبد. ستقفان وجهًا
لوجه أمامى والعار يقطر من وجهيكما، وتتردد أصداء هذا الحديث
جيلا بعد جيل إلى يوم القيامة. وستشهد الأجيال قوتى وضعفكم
وثباتى وهروبكم وحقى وظلمكم. وليس فوق الظلم ما يمكن أن يسب
به صاحب السلطان».

فصاح الرجل صياحًا عاليًا لم أفهم منه لفظًا، وخرج يخبط الأرض
فى عنف، ثم تضاءلت أصداء خطواته فى السرايب بعد حين وعاد
السكون العميق، ثم أتى السجنان إلى حجرتى فأعاد المصراعين
إلى إغلاقهما، وكان الليل قد أخذ يرخى سدوله، واختفى الشعاع
الضئيل من الضوء وأقبل على الظلام الكثيف يلف ما حولى، ولكن
قلبى كان يشتعل ويضىء. وقمت أصلى لله شكرًا فقد نصرنى فى
سجنى على تيمور فى جبروته.



لم أنم من الليل شيئاً بعد أن انصرف عني الرجل صاحب الذنب، ولكنني كنت مطمئن القلب مبهتجاً. فلما مضى الليل وأطلت على بواذر أشعة النهار الضئيلة من وراء قضبان سجنى، سمعت صرير المفتاح فى باب حجرتى، ثم رأيت الباب يفتح ودخل منه السجنان حاملا فى يده صرة. فتبسم فى وجهى أول بسمه منذ رأيته، ثم ألقى إلى الصرة وقال: «هذه خلعة مولاي». فنظرت إليه ولم أفهم ما يقصد من قوله، فأعاد كلماته وهو يزيد فى ابتسامته اتساعاً وقال متلطفاً: «خلعة مولاي تيمور العظيم، لكى تلبسها ثم تمضى إليه مع الأمير صاحب الذنب الذى ينتظرك عند الباب». فدار بى رأسى وحسبت أننى فى رؤيا، وتحركت فى موضعى ولمست بلاط الحجرة بيدى فوجدته بارداً قاسياً كعهدى به، ثم قمت ومشيت وتكلمت لأؤكد من أننى لست نائماً. ثم خررت لله ساجداً. ولم أنظر إلى الصرة وتركتها ملقاة على الأرض، وخرجت أتلمس الطريق والسجان يرشدنى كلما أخطأته، حتى بلغت الباب، فرأيت صاحب الذنب الذى كان عندى بالأمس واقفاً مقطب الوجه، فلم أنظر إليه وخرجت إلى الطريق بعد أن مكثت فى سجنى شهرين وعشرة أيام وساعتين. وهبت على أنسام الصباح الباردة، تلك الأنسام الرطبة

التي تحمل عطر الفضاء الفسيح ولا تلوثها جدران السجون. ووقفت حيناً أملاً صدرى منها وأنظر إلى السماء الصافية اللامعة، وأنوار الصباح الرقيقة الباسمة، وامتلأت عيناى بالدمع. ثم سرت وقلبي يهتف بالشكر لله الذى له الأمر كله، والذى يلطف فى الخطب الجسيم وينعم بما لا يحصى من الآلاء.

وسمعت الأمير صاحب الذنب بعد حين ينادينى من ورائى «إلى أين؟» فلم ألتفت إليه لأننى كنت منصرفاً إلى تسبيح قلبي، فأسرع حتى صار إلى جانبي وأمسك بذراعى وقال معبساً: «أما تعرف أن تيمور ينتظر؟» فرفعت بصرى إليه وكان رجلاً طوالاً، وقلت له مترفعاً: «أما تعفينى!» فقال وهو يقتل من عبوسه: «وهل هو أمرى حتى أعفيك؟ إنه أمر مولاي». فتنبهت إلى نفسى وزالت دهشتى فتمثلت لى حقيقة الحال وعلمت أننى مطلوب إلى مجلس تيمور. وماذا كان تيمور يبغى منى؟ فتلطفت فى القول وخاطبت الرجل خطاباً ليناً فقلت له: «إذا تكرمت علىّ بساعة أذهب فيها إلى دارى لأصلى سألت الله لك العافية». وما قلت ذلك حتى سمعت صوتاً يصرخ من ورائى ينادينى باسمى، فالتفت فإذا السجان يشتد مسرعاً نحوى وهو يحمل صرة فى يده. فوقفت حتى صار إلى جانبي ومد يده بالصرة قائلاً وهو يلهث: «أتريد أن تذهب إلى البادشاه بهذه الملابس؟». فنظرت إلى ملابسى التى كانت من قبل ملابس السيد القاضى فرأيتها فى الحق زرية لا تليق إلا أن تلبس فى السجون.

فأخذت الصرة من السجان وشكرته على ما تكلف من المشقة. ثم نظرت إلى الأمير الذى إلى جانبى فوجدته ينظر إلىّ باسمًا، فاستبشرت وتبسمت إليه مستعطفًا فقال: «لا بأس عليك أن تذهب إلى دارك ساعة ثم أحضر إليك لأسير بك إلى مولاي. فإنه يريد أن يراك فى ساعة الغداء». وكان هذا القول مدهشًا فى الحقيقة، ولكنى لم أقف لأندesh بل أسرعرت قاصدًا إلى دار صديقى كمال الدين، فما كان أشوقنى إليه، وما كان أشوقنى إلى طلعة أخته الصالحة المباركة «نجوى»، ما كان أشد شوقى إليها! فلما بلغت الدار طرقت الباب ووقفت أنتظر متلهفًا، فأبطأ علىّ الجواب حينًا، ثم سمعت صوتًا يسأل: «من هذا؟» وكان صوتًا حبيبًا. فقلت بصوت متهدج «أنا جحا».

فسمعت صيحة مكتومة ثم فتح الباب وظهرت «نجوى» من ورائه تنظر باسمه بعينيها الواسعتين وقالت فى حماسة يغالبها الحياء: «مرحبًا بك!» ولمحت تحت جفنيها ماء يترقرق.

ثم احمر وجهها، فأصبح مثل لون الورد فى الصباح إذا بللها الندى، فأسرعت أنفاسى ودق قلبى ومددت يدى أضافحها، وغالبت نفسى التى كانت تدفعنى إلى ضمها إلى صدرى. ويعلم الله أن ذلك لم يكن من شوق هذه الأرض، بل كان رحمة ورقة فى صفاء نور السماء. وقلت كلامًا وقالت كلامًا لا أذكر منهما شيئًا، إذ كنت أنطق بما لا أعسى، وأعى ما لا أنطق به. ولما هدأت سألتها عن أخيها،

فقالته إنه خرج فى الصبح الباكر، ودعتنى إلى الدخول. ولكنى اعتذرت وشكرتها واستأذنتها فى الذهاب وأنا أنازع نفسى نزاعاً شديداً، فألحت علىّ فى الدخول لأستريح، وألحت معها خلجات قلبى، ولكنى حركت نفسى قسراً ومضيت فى سبيلى ولم ألتفت إلى ورائى خوف أن تحملنى رجلاى جرياً إلى الباب الذى لم يغلق بعد ذهابى.

سرت فى طرق جانبولاد. وكان بصرى كلما وقع على شىء من بيوتها أو عطفة من عطفاتها رأيته باهر الحسن، كأننى لم أنظر إليه قط. وخيل إلىّ أننى أسير فى مسارب جنان خلع عليها ضوء الصباح ألواناً فاتنة. وما زلت أهيم حتى بلغت قريباً من دارى، فقلت أذهب إليها لألبس خلعة تيمور، وجررت نفسى جراً لأننى كرهت جدران البيوت من أحل جدران سجنى، ولكنى لمحت عند باب بيتى شيئاً يشبه أن يكون جمعاً. فترددت وداخلنى الوهم من أن يكون تيمور قد بدا له رأى فبعث بعض جنده من ورائى ليعودوا بى إلى حيث كنت، وخطر لى أن أطلق ساقى للريح وأنجو من المدينة، ولكنى آثرت أن أتحقق، فتقدمت فى حذر أتدارى فى ظل البيوت. فلما قربت من الجمع لم ألمح فيه خيلاً ولا ريشاً. بل لاحت لى عمام بيضاء وقفاطين فضفاضة. فأطمأننت وذهبت نحو الجمع ثابتاً، حتى بلغت أوله وملت أسأل أقرب الواقفين عن سر الزحام. فنظر إلىّ وما كاد يتبين وجهى حتى صاح صيحة فرح:

«خواجه نصر الدين! جحا!» وإذا بالسيل الجارف يردد الصيحة، ويتدافع نحوى فى ضجيج وعجيج حتى أحاط بى، وجعل كل من استطاع منهم أن يصل إلى يدى يقبلها، وكل من يصل إلى ثيابى يمسح عليها كفه، ومال بعضهم نحو قدمى يلمسونها، حتى كدت أتزعزع وأسقط لولا أن الزحام لم يترك لى فسحة من فراغ أتزعزع به أو أسقط فيه. وبعد لأى انشق الزحام عن رجل يجاهد فى الوصول إلى، حتى صار عندى وأخذنى بين ذراعيه، وجعل يقبل كتفى وعنقى. وصحت عندما رأيت وجهه: «صديقى!» فقال لى كمال الدين: «لم ندركك فى السجن ولم نجدك فى المسجد فجننا إلى هنا». فقلت له: «لقد عرجت على بيتك...» وقبل أن أتم كلامى علت صيحة من الجمع الزاخر: «إلى المسجد!» ثم وجدت نفسى أتحرك كما يتحرك العود على التيار القوى. ولما بلغنا المسجد صلينا ركعتين ثم جلست عند العمود الذى كنت من أقبل أجلس عنده. وما كان أشوقنى إلى أن أعاود لذة أحاديثى! وفتح الله على بما شاء، ولا أدري كيف تحدثت فقد كان الجنان يملئ واللسان يهدر والقلب يجيش مليئاً. وما زلت فى درسى لا أحس للوقت مرّاً حتى أذن للصلاة، فقمنا للجماعة والمسجد يضيق بمن فيه. ثم أردت الانصراف، فأخذت صرة تيمور تحت إبطى وقمت أسير فى مشقة بين الجموع حتى بلغت الباب وهممت بالخروج فإذا بى أرى الأمير صاحب الذنب يقبل على مترفقاّ باسماء ويسألنى أن أذهب إلى مولاه.

فقلت له: «أنا متعب وبى حاجة إلى الإغفاء».

فقال باسم: «إن مولاي ينتظرك على الغداء».

فكدت أنصرف عنه بغير جواب لولا أن غمزنى كمال الدين فى ذراعى ففهمت قصده! وسرت إلى جانب الأمير وسار كمال الدين عن يسارى، وأبى الناس إلا أن يشيعونى حتى أبلغ القصر. فساروا فى موكبهم الصاخب يجهرون بذكر الله حتى بلغنا الساحة الفسيحة. وأشار إلى الرسول أن أدخل. فنظرت إلى كمال الدين ثم نظرت إلى الأمير وقلت له: «أما يدخل معى صديقى؟»

فقال الأمير وهو يحنى ذنبه: «كما تشاء وتقدم راشداً».

فنظرت إلى الأمير وإلى الصرة التى فى يدى وقلت: ولكنى لم ألبس خلعة البادشاه.

فقال وهو ضجر: «لا بأس عليك فادخل فى ثيابك».

فلم أجد بداً من الطاعة، وأعطيته الصرة قائلاً: «احفظ لى هذه معك». فمد يده كارهاً وأخذ الصرة وقال لى فى شىء من العنف: «هلم إذا». فأخذت بيد كمال الدين ثم نظرت إلى الجمع فسلمت عليهم؛ ودعوت لهم بالخير، وانطلقت فى سبيلى إلى ما بين عمد القصر. وكانت دعوات الناس تشق الفضاء وتلاحقنى، حتى دخلت. وشعرت برهبة عندما رأيت مطالع الأبهاء، وفكرت فيما أنا صانع فى حضرة العظماء، فما تعودت أن أجالسهم، وما كنت لأعرف كيف أحدثهم أو أؤاكلهم، ولم أجد من يرشدنى غير صديقى كمال

الدين. فهمست فى أذنه: «كن إلى جانبى فإذا رأيت منى خطأ فاجذب جبتي». فhez رأسه منعماً، وسرنا حتى دخلنا البهو. وكان فيه خوان فسيح لا يدرك البصر مداه، ولا تحصر العين ما علاه: ألوان من زهر، وصحاف من فضة وذهب، وأكواب من البلور، وقوط من الكتان الناصع، وطفافس من الصوف الوثير، وزينة أخرى لم أر مثلها ولا أعرف أسماءها، وكراسى كأنها رصعت بلؤلؤ، عليها رجال كالتمائيل، يلمع فوقهم الحرير ويفوح من لحاهم العبير، وقد توسط تيمور الصدر فى عمامة ذات زخرفة وجوهر، وثياب وهاجة وحلى متألثة براقّة، وكان ينظر نحوى بعينه وجرحه، من تحت جبهة ناتئة، وحاجبين مائلين صعداً. وكانت لحيته سوداء خفيفة، وفمه أشدق يكاد اللعاب يسيل من جانبه، فوقفت أنظر إليه حيناً وأعجب من قدرة الله الذى جعل هذا سيّداً للناس. وجذبني كمال الدين من جبتي، فالتفت إليه فوجدته يومئ إلى أن أسير لأجلس حيث كان تيمور يشير. فذهبت إلى الكرسي الذى أشار إليه فى جواره وجذبت كرسيّاً آخر وأشرت إلى كمال الدين أن يجلس عليه. ولم أدر ما الذى حمل صاحبي على أن يجذب جبتي عند ذلك، ولكنه جلس عندما أشار إليه تيمور. وقد كنت أتمثل تيمور كبعض النمر أو الفهود، له أنياب ومخالب وزئير وزمجرة، ولكنى لم أجده فى الحق إلا رجلاً أو نصف رجل، فلم ألبث أن حللت عقدة وجهي، وفككت حبسة لساني، ووجدت

نفسى أكلمه كما أكلم الناس، بل لقد جعل يؤنسنى بقوله،
 ووجدته يضحك أحياناً، ويدرك من المعانى ألواناً. ولست أنكر
 أننى لم ألث أن نسيت حنقى عليه وسوء ظنى به، وأقبلت عليه
 طيب النفس منشراحاً. وتلطف بى فكان يمد يده إالىّ بقطع مختارة
 من طرف الطعام، وكنت فى الحق جائعاً، فوجدت فى الأكل لذة
 لم أعهد لها ولم أعرفها. وكان حياله طبق فيه فاكهة تأخذ العين
 بجمال منظرها، ولست أعرف لعلها كانت من بعض ما حمل إليه
 من أطراف الصين، أو من غوطة دمشق، فمد يده إالىّ بواحدة كانت
 لها رائحة لا يشبهها ريح المسك والعنبر، ولا يدانيها لون الورد
 الأنضر. فرفعتها لأمتع نفسى من شميمها، ثم قضمت منها قضة
 كأنها الشهد فى مذاقها، وكدت أقضم منها أخرى لولا أن جذبنى
 كمال الدين من جبتي، فأمسكت على مضض ونظرت نحوه بمؤخر
 عيني فهمس لى قائلاً: «هدية الملوك لا تؤكل...»

فعجبت من قوله لأن الله إنما خلق هذه الفواكه اللذيذة لنأكلها
 ونشكره على جزيل نعمه، ولكنى لم أجد حيلة فى نصيحة
 صاحبنى، فهو أعلم بما كان ينبغى لى أن أفعل فى مجالس الملوك.
 فوضعت الفاكهة فى حجرى وانصرفت إالىّ بقية طعامى، وشعرت
 بارتباك كاد يفسد علىّ غدائى. ولكن تيمور مد يده إالىّ ورك ديك
 سمين فقدمها إالىّ وهو باسم، فأخذتها من يده وشكرته فى أدب
 مقلداً حركة من حولى فى تحاياهم، ثم أمسكت الورك بيمينى

فى سكون؁ ولم أستطع أن أمد ىدى إلى شىء آخر فجذبنى كمال الدين من جبتى فالتفت إليه مستفهماً؁ ولكنى قبل أن أسمع همسته سمعت تيمور يسألنى: «لم لا تأكل ما أعطيتك؟»

فالتفت إليه فى أدب وقلت معتذراً: «أىها البادشاه ما كانت هدايا الملوك لتؤكل. وهذا صديقى يجذبنى من جبتى».

فضحك تيمور حتى بدت نواجذه؁ ومال على ظهره حتى اهتزت لحيته؁ وأغمضت عينه. وسمعت كمال الدين يهمس: «هذه ورك تؤكل» فرفعت بها ىدى فأكلتها وأنا فى حيرة شديدة لا أعرف ماذا يطلع به صاحبنى علىّ مع كل لقمة. ولكن تيمور تبسط فى محادثتى. واشترك من حول المائدة فى التلطف بى؁ حتى سرى عنى وتركت النظر إلى مشورة صديقى؁ وأقبلت على المائدة آكل كما يريد الله للناس أن يأكلوا حتى امتلأت؁ وأمتعت نفسى بكل الطيبات. وقضيت عند تيمور بعد الغداء ساعات فى شجون الحديث؁ كأننى لم أكن فى صباح ذلك اليوم ملقى فى سجنه.

أيتها الأقدار العجيبة!

وكان الشعراء عند الباب ينتظرون الدخول. فلما صلينا العصر أذن لهم تيمور بالدخول وجلس فى البهو الأعظم وجلس الأمراء والأعيان من حوله فى وقار وقد وضعوا أيديهم على الصدور؁ وأمالوا رءوسهم على النحور؁ حتى مست لحاهم أحزمتهم الحريرية أو الذهبية؁ وأقبل الشعراء واحداً بعد واحد؁ وجعلوا يتغنون

بالسيد الأعظم ويصفون جمال هيئته وشدة هيئته، وسيفه ورمحه، وقوة ساعده ورقة قلبه، وكان منظرهم فى الحق مسلماً، إذ كانوا يتمايلون ويهتزون، وينظر كل منهم بمؤخر عينيه إلى الناس ليرى أثر قوله فى الوجوه. مساكين هؤلاء! جعلت كلما سمعت من أحدهم معنى أتأمله لأرى صدقه، فإذا سمعت وصف جمال تيمور نظرت إلى وجهه، وإذا سمعت وصف قوته صوبت بصرى فى جسمه وصعدته، وإذا سمعت وصف سيفه ورمحه التفت إليه لأرى هل معه من ذلك آلة، فلم أجد من كل ذلك إلا كذباً حتى فرغ الشعر، وهز تيمور رأسه مرتاحاً، وأذن للشعراء أن ينصرفوا. ثم أشار إلى رجل قائم عند رأسه، فانصرف وراءهم، ولا أدرى بم أمره، أبعابهم على الكذب أم بثوابهم على الرياء، ولأمثال تيمور حرص على مثل هذه الأقوال المنمقة، والصور المخترعة، فهى تستقر فى العقول فلا يززعها من بعد شيء، ومثل هذه الأقوال قد زيفت على الناس معنى العظمة، وأفسدت معنى الكرم والعدالة، وجعلت من العقلاء الأبرار عبيداً فى الأغلال. وليست هذه أول مرة رأيت فيها أثر الألفاظ فى الناس، فقديمًا كان الإنسان أسيرها.

ومهما يكن من الأمر فقد جلست أتأمل ما كان، وأوازن بين المحاسن وأضدادها، ثم تنبهت بعد حين إلى جذبة فى جبتى، فالتفت فإذا كمال الدين يغمزنى بعينه مشيراً نحو تيمور، فالتفت إليه فوجدته يبسم ويقول: «لقد أبعدتك عنا تأملاتك أيها الشيخ الجليل».

ولمحت فى مظهره ورنين صوته شيئاً كثيراً من العطف حتى رقت له ولمت نفسى على ظلمى إياه، وعرانى ارتباك فلم أستطع جواباً. فقال لى متطلفاً: «كنا نتحدث فى أمر نحب أن نسمع فيه رأيك». فقلت وقد سرى عنى: «فيم كان الحديث؟» فقال: «كنا نتمنى لو استطاع الإنسان أن يعرف حقيقة قدره فى أعين الناس».

فقلت مبادراً: «هذا شىء يسير. لقد عرفت قدرى فى أعين الناس دائماً».

فقال باسمًا: «ولكنى جربت ذلك فلم أجده كما وجدته». فقلت له: «لعل الناس يخشونك، أمّنهم خوفك تعرف ما تشاء أن تعرفه».

فضحك وقال فى لهجة التحدى: «أتقدر أن تخبرنى كم أساوى من المال؟»

فقلت ناظرًا إلى من حولى فى ارتباك: «أظن أن هؤلاء السادة أقدر منى على جواب مثل هذا السؤال».

فقال ضاحكًا: «لم أجد عندهم ما يشفينى. قل ولا تخش شيئاً». فنظرت إليه مترددًا، ثم تجرأت وجعلت أفحصه ببصرى وقلت: - لا أظنك تساوى أقل من ألف دينار.

فضحك حتى استلقى على ظهره وضحك من معه وراءه، ثم قال: - إنك لم تبلغ فى جوابك شيئاً. إن ملابسى وحدها تساوى ذلك المقدار من الدنانير.

فقلت وقد امتلأت سرورًا من صدق حدسى : «لقد صدق ظنى إذا.
فما كنت أنظر فى تقدير ثمنك إلا إلى هذه الملابس».

فعاد إلى الضحك حتى كاد نفسه ينقطع. وضحك أصحابه مثله
حتى لم يبق فى المجلس أحد لا يضحك غيرى أنا وكمال الدين.
ونحن ننظر إليهم ونتعجب مما يضحكهم.

وبعد حين هدا تيمور وظهر عليه النشاط وانشرح صدره، ثم نظر
إلى جادًا وقال : «أيها الشيخ المبارك، إننا نحب أن نسمع وعظك».

فوقعت كلمته علىّ وقعًا ثقيلا، وزادت حيرتى عندما نظرت
حولى، ورأيت من كان هناك من حراس وأتباع ومن لحى شهباء
وعمام مكورة بيضاء. فماذا كان لى أن أقول بين هؤلاء؟ وما خرجت
من سجنى لكى أعظ تيمور، ولعل تلك العظة تعيدنى إلى ما كنت فيه
من ظلام جحرى. وترددت طويلا وأطرقت حائرا وكدت أنطق معتذرا،
ولكنى لم أجد لنفسى عذرا. وسمعت تيمور يقول لى : «لقد سمعت
عن ورعك وعلمك فأحببت أن أراك وأن أسمعك، فلا تحرمننا من بركة
مواعظك». فشعرت كأن روحا جديدا يسرى فى أعماق قلبى، ونسيت
إشفاقى وخوفى، وقمت كأنتى أنشط من عقال. فأحسست جذبة فى
طرف جبتى، ولكنى لم أبال صاحبى، وانطلقت أتكلم، فقلت ناظرا
إلى تيمور : «لا تصدق حرفا واحدا مما يقوله هؤلاء الذين يمدحونك،
فإنهم إنما يبيعون لك سلعة يعرفون أنك تحبها».

وما نطقت بهذه الكلمات حتى رأيت الجمع ينتفض كأن ناراً
لذعتهم، ورأيت لحاهم تخفق، ونظروا إليّ ثم نظروا إلى تيمور
ليروا ما هو صانع بي، ولكنى لم أنظر إليّ أحد وقلت مستمراً:
«وإذا أردت أن تسمع عظة فلا شيء يعظك خير من الحقيقة، فتأمل
وفكر والتمسها. لقد خلقك الله كما خلق من قبلك وكما هو خالق من
بعدك، وجعل لك أياماً على هذه الأرض لن تعيش أكثر منها. ولقد
كنت قبل أن تخلق نسياً منسياً، وستمضى بعد حين وتذهب عن هذه
الأرض لا تأخذ منها شيئاً، فلا تجعل هذه الأيام القصيرة تغطي
على الحقيقة الخالدة، ولا تجعل هؤلاء الذين يمدحونك يسخرون
من حكمتك. قد خلقك الله كما خلق هؤلاء الناس جميعاً، وجعل
لكم الحياة ميداناً وامتحاناً لكي تؤدوا الواجب الذى ألقاه جل وعلا
على الإنسانية عندما خلقها منذ قال: «وما خلقت الجن والإنس
إلا ليعبدون». وما عبادته إلا السعى إلى الكمال الذى قدره للخلق،
وجعله قصد حياتهم. وكان من قبلك ملوك بلغوا من السلطان
ما بلغت، ثم أضلّتهم الحياة فمضوا عنها وصاروا نسياً منسياً.
فهم اليوم صور وأسماء مجردة معطلة من كل مجد وهيبة، لا فرق
فيها بين فرعون وبين العبد الذى كان يسجد عند قدميه. فالملوك
الذين لم يخلقوا إلا آثار العسف والطغيان لم يكونوا أهلاً للإنسانية
بل كانت حياتهم على الأرض لعنه لأنهم جحدوا الله الذى وهب
لهم الحياة. كان المجد عند الطغاة أن يذلوا الأعزاء، وأن يسفكوا

الدماء، وأن يجعلوا أهل الأرض عبيدًا ليطمئقوا كبرياءهم وغرورهم. فلما مرت أيامهم ذهبوا بعد أن دمعهم اليقين، فعلموا ولات حين علم أن كل ما اضطربوا فيه لم يكن سوى غرور من الغرور، وليس فيه شيء سوى الغرور، وبقيت الأرض بعدهم باسمه كأنها تسخر من جهالتهم العمياء.

«لقد مرت يومًا بغابة، ورأيت فيها تنازع الحيوان والحشر، وهناك استطعت أن أدرك الرسالة السامية التى أعدها الله للإنسان، أن يعيش على قانون الرحمة والحب لا على القانون الطليق الذى يحكم الغابة. ولكنى كلما تأملت بدا لى أن من بنى الإنسان من يريدون أن يطفئوا نور الله، وأن يمسخوا الرسالة السامية ويعودوا إلى قانون الغابة طمعًا فيما يصيبونه من وراء ذلك من مجد حيوانى وحشى. وهؤلاء ليسوا سوى نكسة من نكسات الحياة، وقلقة من فلتات أقدام الإنسانية فى صعودها نحو العلا، الأرض لا تضيق بالناس جميعًا إذا أرادوا أن يعيشوا فيها لما أراد الله لهم، بل هى تتسع للجميع وتفتح ذراعيها للجميع، وتدعو الجميع إلى الحياة السعيدة. فهنيئًا لمن استطاع أن يكون من رسل الرحمة. ومن أكبر الإنسانية وأعظمها، فلم يسفك دماءها، ولم يدنس كرامتها، وسعى فى تحقيق الخير، وأعان على تحقيق السعادة للجميع».

ولما انتهيت إلى آخر قولى تنفسست نفسًا عميقًا وشعرت بأن حملاً أزيح عن كاهلى، ونظرت حولى حتى وقعت عيني على تيمور.

وما كان أشد عجبى إذ رأيته يبكى. نعم كان يبكى وهو مطرق
والدموع تنحدر على لحيته. وكان الجمع كله مطرقاً يشارك فى
البكاء، إلا صديقى كمال الدين فقد كان ينظر إلى مأخوذاً وصدره
يعلو ويهبط فى اضطراب. فلما رآنى قد أمسكت قام نحوى ولم يعبأ
بأحد، حتى صار أمامى وضمنى إلى صدره، قائلاً فى صوت متهدج:
«لقد عرفت أنك لن تخشى فى الحق أحداً. وأحمد الله إذ لم تطعننى
عندما جذبتك من جبتك».

ولما عزممت على الخروج بعد ذلك صافحنى تيمور متأثراً،
وأمر لى بخلعة أخرى، فذهبت إلى دارى عند الغروب بخلعتين
كريمتين من البادشاه كأننى لم أكن عند شروق الشمس ملقى فى
سجنه. فسبحانك يا الله!



سمعت فى اليوم السابع بعد خروجى من السجن حركة فى جانبولاد، وكنت ذاهباً إلى المسجد الذى جعلنى تيمور إماماً له، وكانت ضجة عظيمة حسبت أنها هيلة حرب أو حدث من الأحداث. كان الناس يتواثبون ويتسابقون فى هياج ويقولون «خرج تيمور».

خرج تيمور بكل جيشه وكل أمرائه عائداً إلى سمرقند، فلم يبق من جيشه أحد فى جانبولاد، وخرج معه كثير من أصحاب الأعلام وحملوا قدورهم معهم، لأنهم لا يقدرّون على مفارقتها أو الحياة من غيرها، فهى عندهم أعز من الولد وأحب من الوطن. وخرجت مسرعاً لأنظر إلى الموكب الضخم، ولم أستطع مغالبة نفسى فى رغبتها، فرأيت تيمور وهو خارج. وسلمت عليه ولا أنكر أننى أحسست فى قلبى عطفاً عليه. مسكين هو ما كان أفقره إلى السلام! ورأيت السيد القاضى صاحب السيف يسير وراءه فى مؤخرة الجيش على بغلة حمراء، وكانت قدوره الخمسون محملة على قافلة من الإبل تسير فى آثاره. وكنت قريباً منه على جانب الطريق فوقعت عينى عليه وتبسمت له وأحسست له رقة. مسكين هو كذلك. فقد كان الحزن بادياً عليه، ولما رآنى أدار وجهه ولم يرد على ابتسامتى، ثم مضى

الموكب حتى خرج من المدينة. وهكذا خلت جانبولاد من تيمور بين عشية وضحايا!

وبعد يوم واحد عاد السلطان علاء الدين إلى ملكه ونزل في قصره، ورجع الأمر إلى مستقره. وكان لعودته يوم مشهود أخذت فيه المدينة زينتها ففرشت له الأرض بالطنافس، ورفعت له الأعلام فوق البيوت - أعلام تنم عما في القلوب من بشر وليست مما ينم عما في القصور من ذهب. وقد اختار السلطان علاء الدين أن يقيم في جانبولاد. ولعله أراد أن يزيل أثر تيمور منها. فرفع رايته على قلعتها، وأظهر مجده في مقرها وساحتها. فقد طالما شقيت قلعتها ببؤس تيمور، وطالما ضاقت ساحتها بجنده المغرور. وازدحم الناس على جانبي الشارع الأعظم. وخرجت فيمن خرج وكأنى عدت في طربي إلى عهد الصبا، ولما مر موكب السلطان في خيله ورجله أقبل ركب الحريم في هودجه وستوره، من عجيب الاتفاق أن مر بي هودج باهر في ستور من الحرير والجواهر فلما صار تلقائى خفقت ستوره خفقة فماذا رأيت؟ إنها عليّة بعينها وجبينها وشعرها ونحرها ومعصمها وأناملها. ولكن أى فرق بين ما رأيت منها بعينى عند ذلك وما كنت أراه منها فى خيالى من قبل فى صباحى ومسائى؟ أنا الذى تبدلت وتغيرت أم هى التى خلقت خلقاً جديداً؟ رأيت فى نظرة خاطفة عيناً غير العين التى سحرتنى وجبيناً غير الجبين الذى أوحى إلى بالمعانى.

أين هي من «نجوى» الصالحة الباسمة ذات العينين الناطقتين
الوديعتين. أين هي من «نجوى» التي لا أبرح أراها فى لمعة الشمس
وفى ضوء القمر وفى فم الزهرة وفى قطرات الندى؟
أهى علىة التي تغيرت أم هو قلبى الذى يحس وعينى التي
ترى؟ لقد كنت ما حييت أحب أن أكشف عن قرارتى وأتعرّف ما
خفى من عيوبى. ولست أبرئ نفسى ولا أزكيها فأنا كما خلقنى الله
ضعيف لا أدعى قوة سقيم لا أدعى سلامة. ولكنى أصف ما كان منى
غفر الله لى وتجاوز عن ضعفى وسقمى.

ولما عدت إلى بيتى بعد انصراف المواكب عادنى وجد غلب
علىّ لم أستطع إدراك علقته ولم أقو على صرفه أو الاحتياى فى
مغالبتة. فإذا بى أحس عزوفاً عن الناس فكنت لا أكاد أطيع مع
أحد حديثاً. وبقيت فى الدار لا أخرج إلا إلى صلاتى ثم أعود إليها
فلا أجد ما يفرج همى إلا البكاء. وكان كمال الدين يزورنى كل يوم
ساعة، فأكاد أضيق به وأتخرج أن يرى وجومى وبكاى. فإن دعانى
إلى زيارته تعللت له بالعلل حتى ينصرف عنى. ولكنه جاءنى
يومًا وجعل يحملنى على الخروج وكلما تخلصت بعة حاورنى
فيها وجادلنى حتى قال لى كلمة هزتنى وزعزعت عزمى. قال إن
أهل جانبولاد يتحدثون عنى بما يكاد يبعث فيهم فتنة، يقولون
إننى أنا أخرجت تيمور من الأرض بكرامتى، وإننى أنا هزمته

بمقالتي. وقالوا إن السلطان ما اختار الإقامة في جانبولاد إلا ليكون قريباً مني فتحصل له بركة صلواتي ودعواتي.

فما سمعت قوله حتى دهشت وحزنت. وسألت الله أن يغفر لي ولا يؤاخذني بما قالوا. هكذا الناس لا يرضيهم إلا الإغراق والغلو. ولو علموا الحق لعرفوا أن الله لم يخلق من البشر شياطين مردة ولا ملائكة بررة. إن الله خلقنا بشراً نقارف الخير والشر ويتمزج فينا الضعف والقوة. وما أجدرنا أن نفيض بالحب والعفو وأن نعرف أننا أبداً فقراء إلى الحب والعفو.

وحملني قول صديقي أن أخرج من عزلتي وأستغفر الله أن أكون قد أثرت في الناس هذه الفتنة بكلمتي أو إشارتي. وخرجت منذ ذلك اليوم إلى المسجد فعاودت فيه دروسي لعلني أدخل إلى قلوب الناس شعاعاً من الحق يردهم عن هذا البهتان. بل لقد تعمدت أن أظهر فيهم ببعض ما أكره، وأعلن بعض ما أنكر لعلهم يدركون أنني بشر أزل وأخطئ، فإذا اجتهدت فأنا إنسان ضعيف وإذا علمتهم فأنا مثلهم بشر سخيف؛ ولكنهم كانوا يرون آثامي تجلياً وحماقاتى رموزاً حتى عجزت عن صرفهم عن اعتقادهم وهممت بالهجرة خوفاً من تضليلهم. ولكن كمال الدين كان كالصخرة ثابتاً. فنصحتني أن أواصل دروسي فإن العلم وحده يهدي النفوس ويهذبها.

وكننت في داري ذات مساء فسمعت طارقاً يدق الباب وكنت لم أر صديقي كمال الدين في ذلك اليوم، فوقع في نفسي أن يكون

هو الطارق، فأسرعت لأفتح له، ولكنى دهشت عندما رأيت رجلاً لا أعرفه، وكان رجلاً حسن الوجه واللحية، عليه هيئة العلماء، وله سمت الصالحين. فرحبت به ورجوته أن يدخل. فاعتذر قائلاً: «لعلى قطعت عليك تسبيحك أيها الشيخ الصالح، فأرجو منك عفواً» فأعدت عليه الترحيب ودعوته للدخول فأبى قائلاً: «مولاي السلطان قد بعثنى في طلبك».

ولا حاجة بي إلى إطالة الحديث في وصف ما دار بيني وبينه فقد كان لا بد لي من رؤية السلطان. وكان علاء الدين عندي كريماً جليل القدر، فهو سلطان وطني، وعرفته الملك الصالح البر والعالم الورع. فلم أتردد طويلاً في الذهاب إليه مع كل ما كان في نفسي من العزوف عن غرور الحياة.

ولما بلغت القصر ودخلت في رحابه، وانتهيت إلى مجلس السلطان، رأيته في حلقة من العلماء والحكماء. فأنشرح صدرى لمنظره إذ لا شيء أجمل من الملوك إذا أحاطت بهم مثل تلك الهالة النبيلة. قيل إن حكيم اليونان سئل عن الحكم يوماً فقال إنه لا ينبغي أن يحكم الناس سوى الفلاسفة. ولو تأمل العاقل هذا القول لوجدنا أنه الحق عينه. ولو أنصف الناس لأجمعوا على تجربته، فإن الدول كانت منذ القدم لا تدين إلا لأولى القوة، حتى كاد الناس يعتقدون أن الحكم وقف على أصحاب السيف لا يجمل بأحد غيرهم أن يقبض على صولجانه. بل لقد قالوا في بعض الأمثال إن الله

ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. ولكنهم لم يجربوا مرة إقامة دولة على حكم الفلاسفة. وأغلب ظنى أنهم لو جربوا مثل ذلك الحكم لاستساغوه وأقبلوا عليه، ولم يرضوا به بديلاً. فإن الفلاسفة يعرفون ضعف البشرية، وهذا يكفل لحكمهم الرحمة. ويعرفون كرامة الإنسانية، وهذا يكفل لهم التطلع والتسامي. ويعرفون معنى الفناء، وهذا يكفل لهم الاعتدال.

وكانت ليلة مباركة تلك الليلة التى قضيتها فى مجلس علاء الدين، لم أنصرف عنه بخلة، ولم أذق عنده طعاماً، ولكنى عدت من عنده بقلب عامر بالمعاني. ما أجمل الملوك إذا أحاط بهم الحكماء!



لم تفارقنى وساوسى منذ ليال وكنت أحس كأننى أضطرب
 فى بحر لجى موج من فوقه موج من فوقه سحب. كانت صورة
 عليّة فى تلك الليالى لا تبرح ماثلة أمام عينى ناظرة إلىّ بجبينها
 العالى وأنفها الأشم وعينها المتكبرة كأنها تسألنى «من أنت؟» لقد
 كانت تلك الصورة من قبل تبدو لى عاطفة رحيمة تأخذ بى إذا
 ما اشتدت بى الحيرة وتصد بى إلى حيث الصفاء والسلام، فما
 الذى بدل نظرتها؟ ولكن ما بالى أتحدث عن صورة عليّة ابنة علاء
 الدين كأنها شخص له جسد وفكر وروح يحدثنى ويتغير فى نظرتة
 نحوى؟ أليس هذا من الخبل والتخليط؟ أكانت فى عقلى لوثة هى
 التى خيلت إلى ذلك الوهم الذى تسلط على كل هذه المدة الطويلة
 منذ وقعت عينى عليها فى ماهوش؟

كنت سابحاً فى هذا الخضم المائج عندما طرق بابى رسول
 السلطان ودعانى إلى حضرة مولاه. وكان السلطان على عادته نبيلاً
 كريماً، فما زال يكرمنى فى الحديث ويقبل علىّ بالترحيب ويبالغ
 فى التلطف بى - عفا الله عنه - فيسألنى الدعاء ويتلمس منى
 البركة حتى كاد الغرور يدخل إلى قلبى، وأى إنسان لا يقدسس
 إلى قلبه الغرور؟ لقد أوشكت أن أصدق السلطان وأومن بما يقوله

أهل جانبولاد فأظن في نفسى القرب من الله. أعوذ بالله من الغرور، فأنا أعرف الخلق بما ينطوى عليه صدرى من نوازع ضعف الإنسان ودوافع طباع الحيوان. فلما خلوت إلى نفسى بعد ذلك المجلس تركت العنان للبكاء لعلى أنال عفو الله عما داخلنى من الغرور. وقد فاجأنى السلطان فى ذلك المجلس بأمر ما كان يخطر لى ببال فقد عرض على أن أكون له وزيراً أدبر له ملكه وأشير عليه بما ينبغى أن يكون عليه حكمه. وما كدت أسمع ذلك الحديث حتى كاد يغلبنى الضحك على الحياء. فإنه عندما طلب منى الدعاء دعوت الله له ولا حرج علىّ إذا اتجهت إلى الله بالدعاء، فإن الله يقبل الدعوة من خلقه ولا يقيم حجاباً بينه وبين عبادہ.

ولكنه عند ما سألتنى أن أدبر له الملك دار بى رأسى فأوشكت أن أنفلت من وعيى. ولولا أنه السلطان العظيم فى مجلسه الرهيب لانفجرت ضاحكاً ساخراً. أیكون جحا وزيراً؟ قد أحسن السخرية من الحياة كلما رأيت فيها حماقة أو سخافة ولكنى إذا ضحكت من السخف لم يخف عنى أننى شريك لهؤلاء الذين أثاروا الضحك فى نفسى. أأكون أنا وزير السلطان وأزعم أننى أستطيع أن أبلغ قرار الحكمة والعدالة؟ وهل أحمل على عاتقى أوزار العمال وأثقال المظالم التى ترتكب باسمى؟ أكون أنا وزير السلطان لأحمل الناس على أن يعيشوا معى فى عالمى؟

كيف أستطيع أن أدبر أمور الخلق وأنا أنظر إلى الحياة بهاتين العينين اللتين وهبهما الله لى. إن الحق عندى باطل عند أكثرهم

والعدل عندى جور فى مذهبهم. ولست أقدر على أن أخلق نفسى خلقاً جديداً وأقلب كل معايير القيم عندى حتى أصلح لأن أحكم بين الناس على عرفهم الذى يرتضونه. فهل يستطيع السلطان أن يبدل طبعى؟ أو يستطيع أن يأتى لى بناسٍ آخرين يصلحون لحكمى؟ إن الناس لا يعرفون إلا العنف ولا يفهمون من الحاكم إلا القوة والقسر. وهم لا يخرجون عن أن يكونوا فى إحدى حالتين إما أن يكونوا فرائس تتخذ طعاماً أو مفترسين يتخذون من غيرهم طعاماً. ولقد حاولت أن أعلمهم ولكن التعليم لا يجدى إلا بعد أن يؤتى الثمار ويحرك القلوب ويفتح العقول ويهذب النفوس. وهيهات أن يكون ذلك إلا بعد حين طويل. لقد حاول موسى أن يعلم قومه احتمال أعباء الحرية فذاقوه مرارة الحنق والألم حتى فنى جيل منهم بعد جيل. ولا سبيل إلى استقامة الحكم حتى يستعد الناس لتحمل أمانة السلام والكرامة والعدل فى غير عنف ولا قهر. ولو كان أهل جانبولاد كلهم مثل تلميذى كمال الدين أو تلميذتى «نجوى» لهان الأمر ولكن أنى لى أن أجد فى الناس مثل هذين؟ ما لقلبى يخفق عند ما يخطر عليه ذكر «نجوى»؟ مالى كلما صرفت نفسى عن التفكير فيها لا يلبث أن يعود مكرهاً إليها.

أنا أحبها؟ هل هذا الذى أحسه هو ما يسميه الناس حباً؟ إننى أطرب كلما مرت صورتها فى خاطرى فكأن الحياة كلها تبسم

وكان الأفلاك من فوقى تغنى. أأخادع نفسى وأوهمها بأن هذا غير ما يسميه الناس حباً؟ وفيم هذا الخداع إذا كان هو الحب حقاً؟ لقد سمعت عن المحبين وقرأت عن أخبارهم ما يجعلنى أسىء الظن بنفسى. وإن قلبى يرف إذا رأيته، وأصعد فى سماء الملائكة إذا سمعت صوتها وأجد فى حديثها سلاماً مثلما يتحدث فيما بينهم أصحاب اليمين. فهل هكذا كان المحبون قبلى؟ وإنى لأقنع منها بالنظرة لا أطيلها، وبالكلمة القصيرة لا تعيدها، ويسرى فى البشر إذا حييتها فهل كان هكذا المحبون قبلى؟ ولكنى لست أحس ذلك الشوق المحرق ولا ذلك القلق المؤلم الذى يصف الشعراء أثره فى سقم أبدانهم. أيقون ما أحسه مع كل ذلك حباً؟

لقد شردت بى الأفكار عما كنت فيه فإن السلطان أرادنى على أن أكون وزيراً فكدت أضحك لولا أن تماسكت قسراً. وأطرقت صامتاً حتى أعاد على قوله فاشتدت حيرتى ولم أجد من الأمر مخرجاً إلا أن استأذنته أن أتريث فى جوابى. وعدت إلى دارى فى أشد الحيرة أقلب صور الناس فى ذهنى وأتصور ما يكون حالى إذا قبلت أن أكون وزيراً.

أأقيم الحجاب على بابى أم آذن للناس ولا أقيم حجاباً؟ وهل أغير لهم صورتى التى ألفوها فأعبس وأشمخ وأنقبض أم أفيض عليهم بما فى قلبى وأفتح لهم أبواب صدرى وأضحك وأخلط أحياناً فى حديثى؟ ولم تطل بى الحيرة فإنى عزمت على أن أرسل إلى السلطان معتذراً.

ولكنسى ما كدت أخرج من حيرتى حتى طلعت على حيرة أشد
ظلاماً فقد طرق الباب رسول آخر جاء يشتد فى أثرى. فلما استقر
به المجلس همس فى أذنى: أبشر بالعلا والمجد يا جحا.

فعجبت ماذا يكون هذا المجد الذى جاء يحمله إلى وحسبت أنه
قد جاءنى يطلب عملاً منذ سمع أن السلطان يريد أن يتخذنى وزيراً.
فهذا ما تعودته من الناس لا يكادون يسمعون أن سوط الحكم صار
إلى يد رجل حتى يسارعوا إليه ليستمدوا منه أسواطاً. نعم، فما
هى إلا أسواط يستمدونها ليلهبوا بها الخلق أو كما يقولون ليحكموا
الناس بها.

ونظرت إلى الرجل لحظة وكدت أصبح ضاحكاً فى وجهه لولا
أنه كان فى بيتى... ولم يمهلنى الرجل فأعاد هامساً:
«إن السلطان يريد أن يقربك».

فقلت له:

– بارك الله فى مولاي إنه يبالغ فى تقريبي.

فقال باسم فى خبث:

– سوف تكون صهر السلطان يا جحا.

ففتحت عينى من الدهشة وحسبت الرجل يعبث بى أو يسخر
منى.

فلما رأى دهشتى قال جاداً.

– لقد أرسلنى مولاي إليك لأعرض عليك الزواج من ابنته.

فصحت ولم أتمالك نفسى:

— عليه!

فقال الرجل عاتبًا:

— عليه! من عليه؟ فالسلطان لم يسمها عليه. هي ورد خان سليفة السلاطين.

ولم أتذكر إلا في تلك اللحظة أنني لم أعرف اسم ابنة علاء الدين. لقد كنت أدعوها عليه وأناجيها وأصاحبها في خيالي على أنها عليه وأرتل التسبيح على صورتها التي سميتها عليه. ولكني لم أسمع حقًا من قبل ماذا كان اسمها. لم أعرف إلا عند ذلك أن عليه تلك لم تكن إلا صورة أخرى عرفتها في شبابي وخلطتها بالصورة الأخرى حتى صارتا عندي خيالًا واحدًا. أف لنفسى وويح لقلبي! لقد عشت ما عشت في عالم خصصت به نفسى ولم أفرق فيه بين الأشباح والأشياء ولا عيب على الناس إذا هم رموني بالتخليط. وسمعت الرجل يعيد قائلاً:

— أما سمعت بشرى يا جحا؟

كان ينظر إليّ متعجبًا. ولا لوم عليه إذا تعجب منى فقد كنت جديرًا بالعجب لصمتى ووجومى واصفرار وجهى وزيف بصرى. لقد كان الرجل ينتظر أن أثب راقصًا أخلع عمامتى فرحًا وأغنى مرحًا. ولكنى لم أفعل بل بقيت في دهشتى صامتًا.

وبعد لأى استطعت أن أجمع نفسى فقلت مضطربًا:

— هذا شرف لم أكن به جديرًا.

فربت الرجل على كتفى وقال باسماء:

- ليس عليك من بأس فى دهشتك فإن السعادة قد تذهل الناس
كما تذهلهم النكبات.

وكانه قد فهم من حالى وقولى أننى قد قبلت فقام وحيانى
منحنياً. ثم قبل الأرض عند الباب وتركنى قائماً.

ولم أذق طعم النوم فى تلك الليلة بعد انصراف الرجل فإنى
ما كدت أفيق من صدمة الوزارة حتى صدمت بخطبة ابنة السلطان.
عجباً لنفسى ! أما كنت أتحدث فى ماهوش عن عليه؟ فما الذى
غير نفسى منذ رأيت وردخان؟ أهو القدر يسخر منى؟ أم هذا كله
خيال أهذى فيه كما يهذى المحموم فى بحرانه؟

ولمست وجهى بيدى فوجدته يتقد، وعضضت بنانى فآلمنى
حتى كدت أصيح جزعاً. ولكن ذلك كله لم يزل عنى الشك وبقيت
أحسب أننى كنت حالماً. ألا يراجع الإنسان نفسه وهو يحلم فيخيل
إليه أنه يعض بنانه أو يحرك لسانه أو يلمس وجهه حتى إذا
طلع الصباح وجد أن ذلك كله كان حلماً؟ أين الحد الذى يفرق بين
الأحلام والحقائق؟

وقلت أخرج إلى الناس أسألهم لعل ذلك يهدينى. فخرجت أسير
نحو بيت صديقى كمال الدين فلما طرقت الباب سمعت الصوت
الذى يهزنى. ولما حييت «نجوى» سألت نفسى مرة أخرى: أنا
فى يقظة أم لا أزال أهيم مع أشباحى؟. وسمعتها ترحب بى فكدت

أثب إليها وآخذها بين ذراعى لأرى إذا كنت أرى أمامى جسداً أم
كل ما أراه صوراً وأوهاماً.

ولكنى تماسكت وقلت إن ذلك لا يجدينى شيئاً، فلا سبيل إلى
برهان قاطع يذهب عنى شكوكى. وما الذى يدلنا معاشر الأحياء
على أن حياتنا هذه كلها ليست سوى صور تمر علينا فى حلم
مستمر فى أوهامنا.

ولاحظت «نجوى» العزيزة اضطرابى فنادت أختها، فأقبل كمال
الدين علينا فحيا باسمها ومد يده إلىّ فسألته مبادراً:

– أتستطيع يا صديقى أن تخلو معى ساعة؟

فانصرفت «نجوى» وقد علت وجهها حمرة زادتها حسناً. فلما
صرنا وحيدين قلت له هامساً:

– أنا أراك حقاً؟ أنحن فى يقظة يا صديقى؟ أسمعنى صوتك لعله
يهدينى. ولكنى ما جدوى ذلك فلعل الذى يجيبنى ما هو إلا خيال!
وما أزال هائماً فى أحلامى.

فظهر على كمال الدين شىء من الارتياح وأجاب متماسكاً:
– لا بأس عليك يا سيدى.

فقصصت عليه قصة السلطان منذ عرض علىّ الوزارة إلى أن أرسل
إلىّ يعرض علىّ زواج ابنته وقلت آخر الأمر:

– ولست أجد سبيلاً إلى أن أومن أننى لست حالماً. فترفق كمال
الدين بى وجعل ينصرف بى فى شجون الأحاديث فداخلى ارتياح
أعاد إلىّ اطمئناني وبدا لى أننى قد أكون فى يقظة حقاً.

وخطرت لى عند ذلك فكرة كأنها كانت من إلهام الحق. فقلت
مسرعاً حتى لا أجد فرصة للتردد.

– أتزوجنى «نجوى»؟

فنظر كمال الدين إلّى فى دهشة ثم رفع يده فربت على كتفى
وقال:

– لا بأس عليك يا سيدى؟ ألا تحب أن تشرب القهوة معى؟
فقلت له جاداً:

– إذا كنت تعرف أننى لست فى منام فأجب عن سؤالى:
أتزوجنى «نجوى»؟

فأطرق كمال الدين ملياً ثم قال:
– لو كان الأمر لى لقضيت فيه راضياً.
فقلت مبادراً:

– وهل كنت لأرضى برأيك أنت؟ ألا تسأل «نجوى»؟
فقام كمال الدين ولا يزال فى دهشة من المفاجأة وتركنى أدير
فى نفسى كل ما مر بى.

وعادت إلّى صور شتى تساورنى حتى أعادت الشكوك إلّى
نفسى. أنا فى يقظة حقاً؟ لم تكن علىة إلا خيالاً يخادعنى به
قلبى. ولكن «نجوى» ألم تكن تحدثنى وتناقشنى وأراها قطعة من
الحياة أمام عينى؟ كانت «نجوى» أمامى فتاة ساذجة ليس حولها
بريق ولا زخرف. أحدثها فتدرك وأحس فتستجيب.

أتكون هي الأخرى من صناعة خيالي؟
وأقبل كمال الدين راجعاً يبدو عليه شيء من القلق.
فقلت له مبادراً:

— لا بأس عليك إذا هي لم ترض بى. إنها عندي...
ولكنه قاطعني قائلاً:

— معاذ الله يا سيدى أن يخيب ظنك. ولكنى أسأل نفسى ألا تكون...
فأدركت أنه يشفق على أن أكون قد أخطأت فى اختيارى. لك الله
يا صديقى!

فقلت له: «اجلس إلى جانبي فإنى محدثك حديثاً».
ثم قلت له، وكان صوتى متهدجاً:

— كنت فى شبابى أرى قمم الجبال من بعيد تغطيها الثلوج
الشهباء وأرى أشعة الشمس تصبغها عند الغروب وعند الشروق
فتلونها ألواناً ساحرة تخلب النظر والفؤاد. وكم تمثلتها وتصورت
ما فيها من بهاء وكنت أحس فى نفسى دافعاً لا يقاوم يدفعنى إلى
توغل الصخور والصعود إلى تلك القمم الساحرة.

وهكذا قضيت زمناً أهيماً فى خيالى وأنا ناظر نحوها وقلبي
متعلق بالتسامى إليها. ولم أستطع أن أقاوم نفسى فخرجت أسعى
لأبلغها. وكنت أتصور ما تخبئه لى تلك القمم اللامعة من كنوز
وصور باهرة ومسارح ساحرة فسافرت سفيراً مضنياً تمزقت فيه
أعضائى وخارت فيه قوى من نضال الصخور ومحاوره ثنيا

الشعاب. وكدت أهلك جوعًا وبردًا فلم يمسكني إلا الأمل الذي كان يملأ قلبي. وكنت كلما ضجرت وكاد الضعف يغلبني استندت إلى الأمانى التى تجيش فى صدرى فتدفعنى وتزيل آلامى. كنت دائمًا أنظر إلى القمة وأمنى النفس بما لا يزال أمامى. وأخيرًا بلغت القمة وسقطت من الإعياء وخانتنى أنفاسى. ثم كادت الخيبة تقتلنى. ماذا رأيت هناك؟ تلفت حولى فلم أر إلا صخورًا مثل الصخور وكهوفًا مثل ما مررت به فى صعودى. وكانت القمة جرداء صماء كالحة باردة. فسألت نفسى أين البهاء والرونق؟ وأين الألوان الزاهية والأضواء الباهرة؟.

لقد كادت الخيبة تقتلنى. وعدت أدراجى أجر قدمى وأجادل غرورى حتى عدت إلى السهل ونظرت إلى القمة وأنا أتهالك على المروج الخضراء. فرأيت القمة لا تزال تلمع وتصبغها الألوان الساحرة كما كانت من قبل تصبغها. فصحت فى حنق: أيتها القمم الساحرة!

ولقد كان هذا هو شعورى عندما فارقتى رسول السلطان وجلست إلى نفسى أراجعها.

ثم قلت فى لهفة: أرضيت «نجوى» بزواجى؟
فقال كمال الدين مطرقاً:

- لقد لمحت السعادة عليها.

فقلت: أ تكون وكيلها؟

فقال كمال الدين: قد زوجتكها.

ومد إلى يده فخطفتها وقلبى يرفرف كالطائر فى قفصه وقمت مسرعاً لم أتكلم بكلمة حتى بلغت دارى لا أتلفت إلى يمين ولا إلى شمال وقضيت سائر الليلة أصلى وأناجى ربى.

ولما أصبح الصباح ذهبت إلى القصر ودخلت بين عمده فانفرج لى صف الحراس ودخلت إلى البهو حتى بلغت مجلس السلطان. وهناك لقينى علاء الدين وقرب إليه مكانى وغمرنى ببشاشته وحيانى. ولما استقر بى المجلس واستأنست وهدأ جأشى وذهب عنى حيائى أفضيت إليه بما استقر عليه رأبى واعتمدت على الله فلم أخف عنه كلمة تجيش فى صدرى.

وقد سمع قولى هادئاً عاطفاً، حتى إذا فرغت من حديثى سألتنى الدعاء وقدمنى لأكون إماماً فى الصلاة.

وهأنذا اليوم فى جانبولاد وسائر قصتى معروف لا يخفى على أحد، فقد صرت إمام السلطان أذهب كل يوم إلى مسجده الذى بناه ليكون لى مدرسة أعلم فيه الناس مما علمنى ربى، فلعلهم يوماً يبلغون ما يحب لهم علاء الدين من خير فى الأولى والآخرة. وقد وهب لى السلطان بيتاً أعيش فيه مع «نجوى» بعد أن أعفانى من زواج الأميرة. حفظها الله وأمتعها وبارك له فيها.

واننى اليوم أقضى أيامى بين كتابى وصلاتى، وأذوق السلام فى أهلى وولدى. لكم تغيرت بفضل قلبك الطاهر يا «نجوى».

ولست اليوم أحمل لريمة إلا الرحمة والثناء. مسكينة هي أسأل
الله أن يلطف بها فما أولى القلوب الثائرة بالثناء. وهى تقيم فى
جناح من الدار وحدها حتى لا أبعتها عن ولدها.
وقد أتيت بولدى عجيب إلى حضرة السلطان كما شاء فأرضاه
حسن خطه وأعجبه إنشاء رسائله فجعله خازناً لكتبه. بارك الله
للسلطان فى ملكه ورعيته.

وأما جميلة ابنتى فقد زوجها السلطان لوزيره الذى اخترته له
ليحمل الأعباء عنى - صديقى وتلميذى كمال الدين وفقه الله إلى
رضاه. وأما صديقى أبو النور فقد كان أحب شىء عندى أن يشاركنى
فى سلامى وأمنى، ولكنه لم يرض أن يفارق ماهوش فهو لا يحب
أن يدفن عظامه إلا فى ثراها.

ما أسعد ذلك الصديق الطيب بقلبه الكبير. إنه يعطى ولا يحب أن
يأخذ. ويعاشر الناس كما يجدهم راضياً. ولم أره يوماً يضيق بالحياة.
وقد أردت أن أكتب للناس قصتى فعكفت فى شهر رمضان أتسلى
بها بين قيامى وسحورى. لعل كلمة منها تسرى عن الناس هما
أو تدخل إلى قلبهم سروراً أو لعل خطرة تخطر على قلبهم عند
قراءتها تحمل إليهم حكمة أو عبرة.

وقد وقفتها على أهل جانبولاد وجعلت منها نسخاً فى
مسجدها، لعل الله يجعل لى منها ثواباً إذا ترحم الناس على
كاتبة جيلة بعد جيل.

